تم تحميل هذا الكتاب
من موقع الملفات الاسلامية
http://islamicfiles.net

الطريق إلى
وجه الله عز وجل

islamicFiles.NeT

بقلم
أ.د/ مبروك عطية
الأستاذ فى جامعة الأزهر
والداعية الإسلامى

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله الذي يفنى كل شيء إلا وجهه الكريم ، والصلاة والسلام على خير من أرسله رحمة للعالمين ، وهداية للضالين ، سيدنا ونبينا محمد ، وعلى آله الطيبين الطاهرين ، وصحبه الغر الميامين ، ومن اهتدى بهديه إلى يوم الدين

وبعد

فهذا كتاب سميته (الطريق إلى وجه الله ﷻ) ، أقدمه بأسلوب سهل ميسر هدية للراغبين ، وزادا للمتزودين ، الذين يسرهم أن يكون عملهم خالصا لوجه الله ، وأود أن أقول في تلك المقدمة كلمة مهمة ، خلاصتها أن وجه الله تعالى أوسع مما يتصور إنسان ، وأن الطريق إليه واضح المعالم .

وأنه لا يعنى المجانية ؛ فقد شاع بين الناس أن العمل لا يكون لوجه الله تعالى إلا إذا كان مجانيا ، أي بدون مقابل ، وهذا ليس صحيحا ،

فلا يتعارض العمل لوجه الله تعالى وأخذ الأجر عليه ، لأن الأجر في مقابل الوقت الذي حبس فيه العامل ، وهو مكلف بالسعى على رزقه ، ورزق عياله ، ومن تلزمه نفقتهم .

فمن عمل عملا لأن الله تعالى أمره بالعمل ، وحصل على أجر منه فعمله لوجه الله تعالى ، كما أن الذي يضع اللقمة في فم زوجته يحتسبها صدقة كما روى البخاري في صحيحه ، ومعنى ذلك أن المرء يطعم أهله إذا احتسب لوجه الله ﷻ .

وقد أحل الله الغنائم لهذه الأمة ما أحلها لمن قبلهم ، ومعنى ذلك أن الذي يقاتل في سبيل الله ويأخذ حقه من الغنائم كان قتاله في سبيل الله ، فلا يخرجه من وجه الله أنه أخذ الغنائم ؛ لأنه أخذ ما شرعه الله له ، فهو يقاتل من أجل النصر أو الشهادة ، والشهادة خير وأبقى .

وفي محكم التنزيل يقول الله تعالى : ﴿ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾ ، ويقول ﷻ : ﴿ قَالَتْ إِحْدَىٰهُمَا يَا أَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ ۖ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنِّىٓ أُرِيدُ أَنْ

أُنكِحَكَ إِحْدَى ٱبْنَتَىَّ هَـٰتَيْنِ عَلَىٰٓ أَن تَأْجُرَنِى ثَمَـٰنِىَ حِجَجٍ ۖ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ ۖ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ ۚ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴾

ويقول جل شأنه : ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ لَا ﴿١٦٣﴾ شَرِيكَ لَهُۥ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾

فالمحيا زمانا ومكانا وعملا ، ويقظة ومناما وحركة وسكونا لوجه الله ﷻ

أي أن الحياة كلها لوجه الله متى احتسب المكلف ذلك ، فهو يعيشها بطولها وعرضها لوجه الله ، لا يعيشها بطولها وعرضها لوجه المتعة المجردة من الشكر والاعتبار .

والذي يعيشها بطولها وعرضها لوجه الله لن يفسد فيها ، ولن يعمل فيها عملا يغضب ربه إلا إذا وقع فيه لضعفه ونسيانه ، ﴿ وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ﴾ .

وهو سرعان ما يتوب ويندم ، ويعود سيرته الأولى على طريق الطاعة ، والعمل لوجه الله الكريم ، الذي هو جميع ما يعمل .

وقد توهم بعض الناس أن قارئ القرآن الكريم ، والذي يحاضر الناس في الدين ويتقاضى على ذلك أجرا إنما يتاجر بالدين ، وهذا من الفحش بمكان ؛ لأنه مبنى على تلك الفكرة الشائعة ، فكرة المجانية للعمل الذي يكون لوجه الله تعالى .

وقد أدى شيوع ذلك بين الناس إلى التوجه إلى المجانى وإن كان لا يغنى ، وإلى رواج سوق الدجالين المحترفين الذين يجرون أرجل الناس تحت وهم المجانية ، لأنهم كما يزعمون لو كانوا يعملون لوجه الدنيا والربح لتقاضوا على ذلك أموالا ، لكنهم لا يأخذون على عملهم أجرا ؛ فهم يعملون لوجه الله ، وبعد أن يدمنهم الناس يسحبون منهم بعد ذلك دماءهم التي تجرى في عروقهم ، ويخربون بيوتهم بما يستنزفونه من أموالهم

وقد قال لى أحد الأعلام في مجال الإعلام : إننا لا نحصل من المشتركين في قنواتنا على قيمة الاشتراك مدة ثلاثة أشهر ، أتدرى السبب ؟

قلت : لا .

قال : لأنهم بعدها سوف يدمنون ، ويدفعون ، إنها فكرة (جر الرجل)

والدين ليس محلا للتجارة ، وإنما يتقاضى القارئ أجره ، وكذلك العالم الكبير نظير الحبس ، أي نظير الوقت الذي قضاه ، وهو بشر ممن خلق الله ، ومسئول عن نفسه وعن أسرته ، فمن أين ينفق على هؤلاء إن لم يتقاض أجرا؟

والذين يقولون بجرأة عن جهل : هؤلاء يشترون بآيات الله ثمنا قليلا ، لا يعرف معنى الآية ؛ فمعناها أن فريقا من أهل الكتاب كانوا يحرفون الكلم عن مواضعه ، ويكتبونه بأيديهم ، ويقولون كما قال الله تعالى : ﴿ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ﴾

فهل يفعل ذلك قارئ القرآن ، أو العالم الكبير نظير أجر كما كان هؤلاء يفعلون ؟

وقد نص على وجه الله ﷻ في الكتاب الكريم في مواضع معينة منها الصدقة والصبر ، والدعاء ، وهذا دليل على أهمية تلك المواضع خصوصا الصدقة التي هي أفضل العبادات ، لما لها من أثر على الفقير والمحتاج والمحروم

وقد قال العلماء إن مادتها (ص د ق) دلالة على أنها خير برهان على صدق إيمان المتصدق ، الذي يثق بأن الله ﷻ يخلف له ، ويقبل صدقته ، ويأخذها منه ، وينميها له .

والمال عزيز ، وقد قال الله تعالى : ﴿ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ﴾

وقال عز من قائل : ﴿ وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ﴾

لكن وجه الله في كل عمل يعمله المكلف ابتغاء ثواب الله ﷻ ورحمته

وقد ورد في الحديث أن الذي قاتل ليقال شجاع ، والذي أطعم الناس ليقال : كريم ، والذي قرأ القرآن ليقال : قارئ لا حظ له من رحمة الله تعالى ، وذلك لأنه كان يعمل هذه ليقال كذا وكذا وكذا ، وقد قيل .

وهؤلاء هم المراءون الذين قال الله فيهم : ﴿ كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٌ فَتَرَكَهُۥ صَلْدًا ۖ لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾

وقد يدخل الشيطان من هذا الباب فيفسد على المسلم عمله ، ويقول له : أنت مراء ، والله لن يقبل عملك ، إذا رآه يفرح بثناء الناس عليه ، والحق بخلاف ذلك ، لما ورد أن رجلا قال للنبى ﷺ : "إنى لأتصدق في السر ، فيعلم الناس ، فيسرنى ذلك ، فهل يسقط بذلك أجرى ؟"

قال له النبي ﷺ : "لك أجر السر وأجر العلانية"

وقد رأيت أن من العمل لوجه الله ﷻ ألا يعمل العبد المكلف ، وذلك إذا كان لا يتقن العمل ، فليس معنى أن العمل لوجه الله ﷻ أن يعمله كل من هب ودب ، فلا تقولن لمريض : تعال أعالجك ، وأنت لست بطبيب ، أو تبنى بيتا وأنت لست بمهندس ولا بناء ، أو أن تفتى وأنت لست بعالم .

وقد رأيت بناء على ذلك أن فكرة هذا العمل يمكن أن يفي بها فصلان :

الأول : الطريق لوجه الله

والثانى : أثر العمل لوجه الله

والله أسأل أن يتقبله عملا صالحا خالصا لوجهه ، وأن ينفع به ، إنه أكرم مسئول وأعظم مأمول

أ.د / مبروك عطية
الأستاذ في جامعة الأزهر

الفصل الأول

الطريق إلى وجه الله تعالى

ولله المشرق والمغرب فأينما تولوا فثم وجه الله

في الآية (١١٥) من سورة البقرة يقول الله تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾

يذكر المفسرون هذه الآية في سياق الحديث عن القبلة ، وأنها كانت إلى البيت العتيق ثم كانت إلى بيت المقدس ثم صارت إلى البيت العتيق إلى قيام الساعة .

وحين قال السفهاء من الناس : ما ولاهم عن قبلتهم التي كانوا عليها ؟ ، قال الله ﷻ : ﴿ قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾

وذكر ابن كثير في تفسيره ١٥٨/١ أنها دليل على أن صلاة الخوف إذا اشتد الأمر بلا قبلة ، فأينما تولوا فثم وجه الله ، إلى آخر ذلك .

وأنا أرى أن الآية الكريمة تتسع للقبلة ، ولكل شيء ، إذ الله يقول : ﴿ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ﴾ ، فلا يخلو منه مكان .

وأول شيء يشعر به الإنسان الذي يتدبر الكتاب الكريم أن ختام الآية ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ ، يدل على أن وجه الله تعالى أوسع من أن يحد بجهة ، أو بمكان ، فهو الواسع الذي إن جئته من أي مكان وجدته ، وهو عليم إن جئته من أي زاوية في الملكوت رآك فلا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء .

ومعنى ذلك أن هناك فرقا بين مكان واسع جدا إلى أبعد حدود ، له من الأبواب ما لا يحصى ، فإن جئت من أية جهة وجدت له بابا ، لكن هناك بابا معينا لابد أن تأتي منه لكي يراك صاحب هذا المكان ، أو لابد أن تأتي من باب معين لكي تكون أقرب منه من غيره ، فهناك باب من أبواب الجامعة الواسعة عليك الدخول منه ، لكن بينك وبين مكتب رئيسها مسافة طويلة ، أما إذا دخلت من الباب الرئيسي فإنك عندئذ تكون أقرب إلى مكتب الرئيس ، وهكذا .

وما هكذا الحال مع الله ﷻ ، الذي يراك ، وهو أقرب إليك من حبل الوريد أينما كنت ، ومن أي باب دخلت إليه .

قال النبي ﷺ لمن سأله أن يحدثه عن الهجرة ، وكان له إبل يرعاها ويؤدى زكاتها : "ارجع إلى بلدك ، وارع إبلك ، وأد صدقتها ، واعلم أن الله لن يترك عملك ولو كنت من وراء البحار" .

صحيح أن الركعة في المسجد الحرام تعدل مائة ألف ركعة ، فالله يفضل بعض الأماكن على بعض ، كما يفضل بعض الليالى على بعض : ﴿ لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴾ ، ولكن الذي لا يستطيع الوصول إلى المسجد الحرام لضعفه ماديا وصحيا وأمنا للطريق غير منقوص الأجر ؛ لأن الله تعالى لن يترنا (ينقصنا) أعمالنا .

وهو سبحانه وتعالى لا يكلف نفسا إلا وسعها ، فاعمل ما في وسعك ، واعلم أنك قد أتيت وجه الله ما دمت غير قادر على الوصول إلى الأفضل .

ومع أننا نعلم ونؤمن ونعتقد أننا أينما نول فثم وجه الله فلا يجوز لنا أن نصلى إلى غير القبلة قائلين : أينما تولوا فثم وجه الله ؛ لأن الله أمرنا باستقبال بيته الحرام عند الصلاة ، وقال : ﴿ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ ﴾ ، إذ لابد من تحرى القبلة ، والاجتهاد في معرفتها ، فإن ضاقت علينا السبل صلينا حسب اجتهادنا وإن أخطأنا ، لأننا أينما نول فثم وجه الله .

لكن أن نقول ابتداء : أينما نول فثم وجه الله ، ولا داعى إلى الاجتهاد في معرفة القبلة والصلاة إليها فهذا من باب (عك – يعك – عكا) .

ومن يرد الله به خيرا يفقهه في الدين

وقريب من الآية الكريمة أننا إذا سافرنا وضربنا في شعاب الأرض فلنعلم أن الله معنا ، إذ لا يخلو منه ﷻ مكان .

ولله در العامي الذي قال "رب هنا رب هناك" ، ولكن على الوجه الصحيح ، وهو أننا إذا ضاق بنا مكان سألنا الوسع في غيره ؛ لقول الله تعالى في الذين تتوفاهم الملائكة ظالمى أنفسهم ، وسألوهم : فيم كنتم ؟ ، فقالوا : كنا مستضعفين في الأرض ، قالوا : ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها ؟ ، لأن الله ﷻ يقول : ﴿ وَمَن يُهَاجِرْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِى ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً ﴾

فالله ﷻ ضيق هنا ووسع هناك والعكس ، وعلى الناس أن يبحثوا عن السعة في مكانها وزمانها ، محتسبين ثواب جهدهم وجهادهم عند الله ﷻ الذي أمرهم بالانتقال ، والسفر ، والهجرة من مكان إلى مكان ، وقد هاجر النبيون وخاتمهم صلوات الله عليهم أجمعين نشرا للدعوة ، وطلبا للسعة ، ورجاء لفضل الله العظيم .

فلا يقولن أحد "رزق هنا رزق هناك" ، ولكن عليه أن يسعى في طلب رزقه ، وأن يجتهد في تحصيل الأزكى منه أنى وجده ، فالله ﷻ يقول : ﴿ تَجِدْ فِي ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً ﴾

ويدخل في سياق الآية الكريمة ما كتبه الإمام مالك رحمه الله لمن كتب إليه يأمره بأن يعتزل الناس ، ويتفرغ لعبادة الله ، فكتب إليه الإمام : "إن الله يفتح لعبد في الصلاة ما لا يفتح له في الصدقة" .

إلى آخر ما مفاده أن ذلك على خير وذاك على خير ، فباب الله واسع .

ويقينا أن الإمام رحمه الله يقصد باب النوافل ، إذ الصلاة المكتوبة لابد من إتمامها ، وكذا صوم رمضان ، وكذا الزكاة المكتوبة .

لكن قد تجد إنسانا مجتهدا في صلاة النافلة وقيام الليل إلى حد كبير ، وقد تجد آخر مجتهدا في الصدقة ، وثالثا مجتهدا في ختم القرآن الكريم ، وهكذا ، فلا يلومن هذا ذاك ، ولا يحسبن نفسه مفضلا عليه ، فهذا يبتغى وجه الله ، وذاك يبتغى وجه الله ، وأينما تول فثم وجه الله .

حتى إذا وليت بنوم واحتسبته ، كما كان معاذ بن جبل رضي الله عنه يبتغى بنومته وجه الله تعالى ، ويحتسب عنده ﷻ نومته كما يحتسب

يقظته ، أي يرجو بنومه راحة بدنه ؛ ليفيق من نومه إلى عمل جديد من الأعمال الصالحة التي ترضي ربه ﷻ .

فنومه من أجل وجه الله ؛ لأنه لا يريد أن يستلقي ويرتاح من أجل أن يهب إلى المعاصي والذنوب ، وإنما من أجل أن ينهض مبكرا ليدرك ركعتي الفجر ، أو من أجل أن يدرك الساعة الأولى التي يوقع فيها في عمله ، فلا يتأخر ، ويعتذر كاذبا ، ويتعلل بأزمة المرور ، وغيرها ، حتى يقول له الموظف المختص : تفضل ، ويسمح له بالتوقيع ، وكأنه جاء قبل الموعد المقرر للحضور .

فوجه الله تعالى إذا ضاقت الوجوه والسبل في كل مكان ، ووجه الله تعالى مقصور على الوجه الذي بينه ﷻ وشرعه ، لا على سبيل الفوضى ، وأن يعمل كل مكلف ما بدا له قائلا : أينما تولوا فثم وجه الله إن الله واسع عليم .

ووجه الله ﷻ في كل مكان ، حيث أدركتك الصلاة فصل ، لقول رسول الله ﷺ : "جعلت لى الأرض مسجدا وطهورا ، فأيما رجل من أمتى أدركته الصلاة فليصل" .

ووجه الله تعالى واسع اتساع ملكه ، وما بعد ملكه ما علمنا منه وما لم نعلم ، في أي مكان ، وفي أي زمان ، وهو يتسع وجودا وحقيقة ، ينجينا في البر والبحر ، يضل من ندعو إلا هو ؛ لأنه قد تنقطع عنا الوجوه ، ولا يسمعنا أقرب الناس إلينا لبعد المسافة التي لا يصل إليه من خلالها صوتنا ، أو لانقطاع الشبكات الموصلة به إن كان يسمعنا من خلال هاتف جوال أو محمول .

لكن الله ﷻ معنا ، ويسمعنا ويرانا ، ﴿ قَالَ لَا تَخَافَآ ۖ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسۡمَعُ وَأَرَىٰ ﴾

ووجه الله تعالى واسع فيما نراه من المخلوقات ، فلله ما في السماوات وما في الأرض ، وقد جاء ذلك في الآيتين بعدها (١١٦) و (١١٧) حيث قال الله تعالى : ﴿ وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ۗ سُبۡحَٰنَهُۥ ۖ بَل لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ۖ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ﴿١١٦﴾ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ۖ وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾

وأنت قد تمشي في مملكة إنسان بالغ فيها النابغة حيث قال للنعمان بن المنذر :

فإنك كالليل الذي هو مدركي وإن خلت أن المنتأى منك واسع

والشعر باب المبالغة ، والخيال ، لكن على سبيل الحقيقة يستطيع الشاعر أن ينطلق من مملكة النعمان إلى مملكة غيره .

وقد قال فرعون ﴿ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلۡأَعۡلَىٰ ﴾ ، ولم تكن مدين من مملكته ، لذا لما وصلها موسى عليه السلام قال له شعيب : ﴿ لَا تَخَفۡ ۖ نَجَوۡتَ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾

قال المفسرون : "لأن مدين لم تكن من ملك فرعون"

أما الله ﷻ فله ما في السماوات وما في الأرض ، ﴿ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا وَمَا تَحۡتَ ٱلثَّرَىٰ ﴾

وأنت قد تمشي على طريق واحد ، وتأتي عند نقطة معينة منه ، وتجد نفسك قد انتقلت من دولة إلى دولة ، ومن نظام إلى نظام ، ومن عملة إلى عملة ، لكن الأرض كلها لله ﷻ ، فأينما تول فثم وجه الله إن الله واسع عليم .

تقول أنا في مملكة كذا ، أو في ملك فلان ، ولا تستطيع أن تقول ذلك بعد خطوة واحدة ، حيث انتقلت من مكان إلى مكان ، ومن دولة إلى دولة .

تكون مخطئا وجاهلا بالجغرافيا إن قلت ذلك ، وربما عرضت نفسك لعذاب أليم بهذا القول .

لكنك لا تخطيء أبدا إن قلت في أي مكان : أنا في ملك الله ، وأنا في أرض الله ؛ لأن الملك كله لله ، والأرض كلها لله .

وإذا علمنا أننا في كل مكان نجد وجه الله أحسنا الظن بالله ، أي أحسنا الاعتقاد فيه ﷻ ، بأنه متى دعوناه مخلصين له الدين أجاب دعاءنا ، ومتى سألناه حقق سؤلنا : ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ۖ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴾

فالله ﷻ يجيب دعوة الداع إذا دعاه ، ويكشف السوء ، ويكلؤ عباده بالليل والنهار ، ونحن جميعا في معيته سبحانه وتعالى ، لكن هذه المعية نوعان :

(أ) معية علم وإحاطة ، وهي تشمل المؤمن وغير المؤمن ؛ لأن الله ﷻ لا يخفي عليه شيء في الأرض ولا في السماء .

(ب) ومعية نصر وتأييد ، وهي لا تكون إلا للذين اتقوا ، والذين هم محسنون ، الذين يأخذون بالأسباب ، ويتوكلون على الله ﷻ حق توكله : ﴿ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴾

فيم يكون وجه الله ﷻ

إذا استقرأت القرآن الكريم وجدت أن أول ما يكون فيه وجه الله ﷻ أن نعبده وحده لا شريك له .

قال تعالى : ﴿ وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ ۖ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾

وقال ﷻ : ﴿ وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا ﴾

والذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه هم الذين عبدوا الله وحده لا شريك له ، وأخرجوا من قلوبهم الشرك كله ، ظاهره وباطنه ، فعلى الله وحده توكلوا ، وبه وحده اعتصموا ، وسألوه وحده دون سواه .

قال ﷺ : "إذا سألت فاسأل الله ، وإذا استعنت فاستعن بالله"

وقد قال الله ﷻ في صدر سورة الزمر : ﴿ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ ﴾ ، أي الخالص من الشرك

ومن ثم كان العمل مبنيا على تلك العقيدة ، فمن صلى وأراد أن تكون صلاته لوجه الله لم يراء بها الناس ﴿ فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ﴿٤﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴿٥﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ﴿٦﴾ وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ ﴿٧﴾ ﴾

ومن كانت صدقته لوجه الله لا يعنيه إذا كان المتصدق عليه محسنا بارا أو مسيئا فاجرا كما نقلت هنا عن ابن كثير رحمه الله .

وهو لا يتبع صدقته منى ولا أذى ، حتى يحصل على ثواب الله العظيم .

وفي الغالب يكون المن والأذى في الصدقات بسبب إساءة الفقير ، الذي ربما ستر فضل الغنى عليه ، ولم يشكره على ما أعطاه ، ولو كانت صدقته لوجه الله ما اهتم بذلك ، ألا ترى إلى قوله تعالى : ﴿ وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ﴿٩﴾ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ﴿١٠﴾ فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ﴿١١﴾ وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُوا۟ جَنَّةً وَحَرِيرًا ﴾

فتأمل قول الله تعالى على لسان الأبرار الذين يوفون بالنذر ابتغاء وجه الله ، ويطعمون الطعام على حبه مسكينا ويتيما وأسيرا لوجه الله لا يريدون منهم جزاء ولا شكورا ؛ لأن ما عند الله خير وأبقى للذين اتقوا ، وما عند الله تعالى وما أعده لعباده الذين ينفقون في سبيله أعظم من شكر الناس ، وأعظم من جزائهم ، إنها جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ، ورضوان من الله أكبر .

ومن كانت صدقته لوجه الله أخرجها يوم استحقاقها ، ﴿ وَءَاتُوا۟ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ ﴾

وبذل الجهد في معرفة الذين يستحقون تلك الزكاة ، أي مصارفها التي بينها الله ﷻ في كتابه : ﴿ إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَٰرِمِينَ وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ۖ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾

ومن طلب العلم لوجه الله طلبه ليعلم الناس ، وإن أخذ عليه أجرا كما ذكرت ، أي لم يطلبه رياء وسمعة ، أو ليباهي به العلماء ويجادلهم ، وكذا من مشى في الصلح لوجه الله أراد إصلاحا بالفعل ، ألا ترى إلى قول الله ﷻ : ﴿ فَٱبْعَثُوا۟ حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِۦ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَآ إِن يُرِيدَآ إِصْلَٰحًا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيْنَهُمَآ ﴾

ومن أعان محتاجا أو صنع لأخرق ، أي عاجز عن الصناعة لوجه الله تعالى أعانه دون انتظار جزاء أو شكر ، ﴿ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ﴾

ويكون وجه الله ﷻ في إيتاء ذي القربى حقه والمسكين وابن السبيل ، وقد جاء ذلك صراحة في قول الله تعالى : "فَـَٔاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَا۟ فِىٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرْبُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ"

انظر كيف تكرر (وجه) في الآيتين السابقتين من سورة الروم .

فالأولى جاء فيها أن وجه الله ﷻ يكون في إيتاء ذي القربى حقه والمسكين وابن السبيل .

ويبدأ تبارك وتعالى بأولي القربى ، أي أن وجه الله ﷻ قريب ، والوصول إليه يبدأ أول ما يبدأ بإيتاء ذي القربى حقه ، أي بصلة الأرحام التي ما سأل بها مؤمن بالله واليوم الآخر إلا أعطى ، قال الله تعالى : ﴿ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾ .

وقد اشتق الله تعالى للأرحام من اسمه الرحيم الرحمن ، وقال للرحم : "من وصلك لأصلنه ومن قطعك لأقطعنه" .

وقال تعالى : ﴿ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓا۟ أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَٰرَهُمْ ﴾

ولعل سويا من الناس يسأل هذا السؤال هل تكون صلة الأرحام ذات ثواب عظيم ، وهل يكون فيها وجه الله ﷻ ، والأرحام منا ، وصلتهم إنما هي صلة لنا ، وطبيعى أن يصل الإنسان أقاربه ، وأن يعطف عليهم وأن يعطيهم جزءا من جسده إن كانوا في حاجة إليه .

كأنه يتصور أن وجه الله لا يكون إلا في وصل الغريب الأبعد دون الأقرب ، والحق أن هذا الدين سهل يسر قريب ، وقد جعل الثواب العظيم على كل عمل قريب جدا ، وعلى كل عمل ميسر جدا ، كما جاء في الحديث الشريف كالكلمة من رضوان الله لا يلقى لها بالا يدخله الله بها الجنة .

وإن كان هناك أسوياء يرون أن صلة الرحم أمر طبيعى لا يحتاج إلى دين ، كما رأت هند بنت عتبة أن الحرة لا تزني ، فليست في حاجة إلى

دين ، فإن هناك أناسا كثيرين يرون أن صلة الأرحام أمر صعب المنال ، وأن بوسع أحدهم أن يفعل أي شيء في الدنيا ولو كان من ضروب الخيال إلا أن يدخل بيت قريبه أو يصل رحمه .

نعم هناك من تكون صلة البعيد وبره به أحب إليه ألف مرة من صلة رحمه ، وبره به ، وقد بحثت في ذلك طويلا ، وهديت إلى أن هناك أسبابا وراء ذلك أهمها أن الأقارب أصحاب حسد فيما بينهم ؛ لأنهم يرون أن الأصل ما دام واحدا فكيف يتميز أحدهم ببعض النعم على بعض ، وكيف وصل بعضهم إلى أعلى المراتب دون بعض ، وكأنهم يرون أنه ما دام الأصل واحدا فإما أن يرتقوا جميعا وإما أن يهبطوا جميعا .

وأن الأقارب يسيئون الصلات ، فالغريب إذا زارك جلس ربما حيث ينتهي به المجلس ، وكان رجلا رقيقا مهذبا ، والقريب إذا زارك دخل مقتحما بيتك ، مطلعا على عوراتك دون استئذان ، يفتح ثلاجتك ، وينظر في غرفتك المغلقة ، ويقول لك : ما هذا ، نجفة جديدة ، إيش إيش ، متى اشتريتها ؟ وأين ذهبت القديمة ، لابد أنك ما زلت تحتفظ بها من أجلى ، إياك أن تكون قد أعطيتها شخصا آخر ، وبالذات فلانا ، ذلك الذي لا يحبنى ، تراك قد أعطيته إياها ، يقينا لقد أعطيته .

يغيظك ، ويحرق دمك ، ويعكر صفوك ، فهو يعبث في بيتك ، ولا يكاد يترك ركنا من أركانه ، ولا غرفة من غرفه إلا ويضع عليها بصمته تلك السوداء .

وهو الذي يعرف سرك ، ويذيعه ، ويطلع على نقاط ضعفك ، وربما ادعى فيك ما ليس فيك ، والناس يصدقونه لأنه قريبك ، وأعرف الناس بك ، ومن ثم يكون ضرره محققا بخلاف الغريب الذي قد يقال فيه : وكيف عرفت ذلك ، ومن أين عرفته ؟

ولو اتقى الله كل ذي رحم في رحمه لما كانت هذه القطيعة المرة بين الأرحام في كل بقعة من بقاعنا ، وتكون تقوى الله ﷻ في الأرحام أن تحسن معاملة رحمك ، وأن تقدم بين يديه أسمى آيات الذوق ، فهو بذلك أولى .

والله ﷻ يقول : ﴿ وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ ﴾

والنبي ﷺ يقول كما روى البخاري في صحيحه : "خيركم خيركم لأهله وأنا خيركم لأهلي" .

وليس معنى الخير أن يكون عطاء مادى فقط ، وإنما يضاف إليه كذلك القول الطيب ، والخلق الطيب ، والذوق الرفيع الذي تدوم معه العشرة الطيبة

ويكون فيه الوصال الجميل بين الأرحام ، وإذا كان الحسد منهيا عنه بين المؤمنين ؛ لقول النبي ﷺ : "لا تحاسدوا ولا تباغضوا ولا تدابروا" ، فإنه بين الأرحام أشد تحريما ، وكذا سائر المنهيات التي من شأنها أن تفسد العلاقة بين الناس ، وأن تعكر الصفو فيما بينهم .

وقد سأل رجل رسول الله ﷺ عن أي الذنب أعظم عند الله ؟ ، فذكر منه أن تزنى بحليلة (زوجة) جارك .

ولا شك أن الزنا كله حرام بحليلة الجار ، وبغير حليلة الجار ، وهو في الأرحام والجيران أشد ؛ لأن من شأن الجار أن يصون حرمة جاره ، عرضه وماله ودمه ، فكل المسلم على المسلم حرام ، دمه وماله وعرضه ، والجيران في ذلك والأرحام أشد حرمة ، وقس على ذلك الواجب والأوجب .

أي أن من الواجب البر والصلة والتراحم بين الناس ، وهو في الأرحام والجيران أوجب ، أو إن شئت فقل إنه من باب أولى .

وكذلك يكون وجه الله تعالى في إيتاء المسكين حقه وابن السبيل الذي انقطعت به السبل ، وليس معه مال يبلغ به وطنه ، أو يصل به إلى غايته

والمسكين الذي ليس عنده ما يكفيه ، وإن كان عنده ، ألا ترى أن الله تعالى قد أطلق على أصحاب السفينة التي ركب فيها كليم الله موسى عليه السلام والعبد الصالح الذي خرقها مساكين مع أنهم أصحاب سفينة ؛ فقال تعالى : ﴿ أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ يَعْمَلُونَ فِى ٱلْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴾

وقد روى البخاري حديث رسول الله ﷺ : "ليس المسكين الذي ترده اللقمة واللقمتان والتمرة والتمرتان ، وإنما المسكين الذي ليس عنده ما يكفيه ، ولا يفطن إليه أحد فيعطيه" .

لأنه لا يمد يده إلى الناس يسألهم كهؤلاء الذين يأتون بيوت الناس يردون باللقمة واللقمتين والتمرة والتمرتين ، يطوفون ويسألون ويجمعون ، وهذا المسكين يبتغى فيه وجه الله تعالى بسد حاجته ، بل إن إعطاءه دليل على اقتحام عقبة النفس الكؤود من الشح ، قال تعالى : ﴿ فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ ﴿١١﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ ﴿١٢﴾ فَكُّ رَقَبَةٍ ﴿١٣﴾ أَوْ إِطْعَٰمٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ ﴿١٤﴾ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ﴿١٥﴾ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ﴾

والمتربة من التراب ، أي المسكين الملتصق بالتراب من شدة فقره وبؤسه ، لا سيما في زمان العسر والرمادة ، حيث أجدبت ، فهي في جدبها تضر بالأغنياء ، فما بالك بالفقراء والمساكين .

وتأمل قول الله ﷻ : ﴿ أَوْ إِطْعَٰمٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ ﴿١٤﴾ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ﴾

فبدأ باليتيم القريب ؛ لأنه أولى ، وكم من يتيم قريب مهجور ، ويتيم بعيد موصول ، وهذا من الخلل الذي أصابنا في كل شيء ، حيث نعطى الأبعد دون الأقرب ، ونحن إذا كنا مأمورين بالعطاء لكل محتاج ، فإن عطاءنا الأقرب من باب أولى ، وقد فقدنا باب الأولويات في تعاملاتنا بوجه عام ، وفي كثير من العبادات صار الناس معظمهم يهتمون بالنافلة أكثر مما يهتمون بالركن ، والركن من باب أولى .

ويكون وجه الله تعالى كذلك في الصبر ، كما في سورة الرعد ، حيث يقول الله تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴾

وتأمل هذه الآية الوحيدة في القرآن التي جاء فيها الصبر مقرونا بوجه الله تعالى .

وأرى أن ذلك كما يدل عليه سياق الآية لأن الصابرين هنا هم القادرون على الانتقام ، لكنهم آثروا العفو عليه ، ﴿ وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ ﴾

ولا يدفع السيئة بالحسنة إلا القادر على أن يرد السيئة سيئة أو سيئات ، لكنه صابر لوجه الله ، فهو أعظم شأنا ، وأعلى قدرا ، وما أشد حاجة الناس إلى الصبر لوجه الله في كل شيء ، ومنه صبر العامل على إتقان عمله الذي يتقاضى عليه أجرا زهيدا ، يكون صبره على إتقانه لوجه الله ﷻ .

وما أعظم الصبر الذي يكون لوجه الله ﷻ في الأعمال وفي غيرها من صور المعاملات المختلفة بين الناس ؛ لأن كل شيء يكون لوجه الله ﷻ يكون عظيما لأنه لوجه الله العظيم .

ألا ترى أن الناس يعملون الأعمال العظيمة من أجل العظيم من الناس ، فما بالك بالعمل الذي يكون لوجه الله العظيم سبحانه وتعالى ،

وكما رأيت في هذا الكتاب أن كل عمل صالح يكون لوجه الله ﷻ عبادة كان أو معاملة ، ولكن النص على وجه الله تعالى جاء مع الدعاء :

﴿ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ﴾

ومع الصبر : ﴿ صَبَرُوا۟ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ ﴾

ومع الصدقة : ﴿ وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى ﴿١٧﴾ ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ ﴿١٩﴾ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٠﴾ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ ﴾

ومع الصدقة أكثر ، وذلك لأن الصدقة أفضل العبادات .

فهي إحياء للمتصدق عليه ، وقد قال الله تعالى : ﴿ مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ﴾

ولأن المال قوام الحياة ، وهو عزيز ، ولا يهون إلا من أجل الأعز الأغلى ، ومن ثم قال الله تعالى : ﴿ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ﴾

وقال ﷻ : ﴿ وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ﴾

صحيح أن الإنسان قد ينفق رياء وسمعة ، ولكن هيهات أن يتساوى من ينفق ماله ابتغاء وجه الله ﷻ ومن ينفقه ابتغاء الرياء والسمعة ، فوجه الله دائم ، وكذا الإنفاق ابتغاءه ، ووجه الناس منقطع ، وكذا الإنفاق ابتغاءه .

والدعوة للإنفاق إنما تكون من أجل ابتغاء وجه الله ﷻ وهي كذلك دائمة ومؤثرة ، قال تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾

وقال عز من قائل : ﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّا۟ئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾

وجه الله ومقتضى المعاني

إذا قلت : إني أريد وجه الله ، أو إني أريد ثواب الله فقد عبرت عن معنى من المعاني ، ولكل معنى من المعاني مقتضى ، ومقتضى وجه الله أن تسلك السبيل إليه ، فلا يعقل أن تقول إني أقصد مكة وأنت متجه إلى باريس ، أو إلى أي بلد آخر إلا إذا كنت قد ضللت الطريق ، وأنت إذا ضللت الطريق هديت بمجرد أن يدلك أحد عليه ، أما أن تصر على ضلالك فهذا ليس من الرشد ، ولا من العقل في شيء .

وإذا كنت طالب علم ، وقلت إني أريد الحصول على تقدير "ممتاز" كان عليك إزاء هذا المعنى أن تسلك مقتضاه ، ومقتضاه أن تجتهد آناء الليل وأطراف النهار ، وأن تعتكف على كتابك ، وأن تستثنى حياتك من الكتاب لا العكس ، أي أن تخاطب كتابك بقولك : "أستأذنك أن أقوم لأتناول شيئا من طعام حتى أقوى على المطالعة فيك" ، لا أن تستثنى الكتاب من حياتك ، حيث يكون الأصل فيها اللعب واللهو والنوم ، وأي شيء إلا الكتاب الذي قد تطالع فيه ساعة ، وتنساه أياما وليالي كثيرة ، فلا تذكر عند أي درس وقفت ، ولا عند أي صفحة كنت تقرأ آخر مرة .

وكذلك من أراد وجه الله ﷻ ، كان الله ﷻ دائما تجاهه في جميع ما يعمل لوجه الله ، فهو في حركته وسكونه ، وفي وحدته واجتماعه ، وعلنه وسره يبتغي وجه الله ﷻ ؛ لأنه يتقي الله ، ومن اتقى الله كان مراقبا عمله وقافا عند كتابه الذي أنزله هدى ورحمة وبشرى للمؤمنين .

ومن كان كذلك كان أبعد ما يكون عن الشرك الذي يحيط كل عمل ، ﴿ وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٥﴾ بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾

وكان أبعد ما يكون عن عقوق الوالدين الذي قد يكون البر بهما لأنهما والدان كريمان مهذبان ، يمنحان ودهما الابن أو الابنة ، فإن كانا بخلاف ذلك كان من الأبناء العقوق .

ولابد أن يتربى الأبناء على أن بر الوالدين لوجه الله ؛ حيث إن الله تعالى أمر به : ﴿ وَٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ﴾

وقال تعالى : ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا ﴾

وكان واصلاً لأرحامه كذلك سواء أكانوا واصلين له أم قاطعين ، وهو يعلم أن أجره إن وصلهم وكانوا له قاطعين أعظم ؛ لأن وجه الله تعالى قد تجلى ، حيث انعدم وجه الناس ، من صلة من يصل ، والإحسان إلى من يحسن وكان محسنا إلى جيرانه ، لأن الله تعالى أمره بالإحسان إليهم ، ﴿ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ﴾

وفي الحديث : "ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليحسن إلى جاره"

وكان حافظا عهده ، موفيا بعقده ؛ لقول الله ﷻ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوْفُواْ بِٱلْعُقُودِ ﴾

وكان صادقا في قوله وعمله ؛ لأن الله ﷻ يقول : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾

ويقول ﷻ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝٢ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴾

وكان متقنا كل شيء يعمله ؛ لأن الله ﷻ يحب إذا عمل أحدنا عملا أن يتقنه ، والله لا يقبل من العمل إلا المتقن .

وكان محسنا في كل شيء يحسنه ؛ لأن الله تعالى يحب المحسنين ، وقد قال تعالى : ﴿ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾

وكان مصلحا لا مفسدا ؛ لقول الله تعالى : ﴿ وَلَا تُفْسِدُواْ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا ﴾

وكان صالحا لا طالحا ، ﴿ قَالَ إِنِّىٓ أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ٱبْنَتَىَّ هَٰتَيْنِ عَلَىٰٓ أَن تَأْجُرَنِى ثَمَٰنِىَ حِجَجٍ ۖ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ ۖ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ ۚ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾

فالصلاح الحقيقى ألا تكون جبارا ، وهذا معنى من المعانى القديمة الجديدة ، أي الثابتة من قديم ؛ لأنها في كتاب الله تعالى ، ولكن الناس تحدثوا عن الصلاح والصالحين في ضوء العبادة ، لا المعاملة ، فتناسوا الصلاح في المعاملة ، ووجه الله ﷻ فيها من تجلياته الكبرى .

- فالله يرحم الراحمين من عباده ، قال ﷺ : "ارحموا ترحموا" .
- والله يرحم المتسامحين من عباده ، قال ﷺ : "رحم الله رجلا سمحا إذا باع وإذا اشترى وإذا اقتضى" .
- والله ﷻ يعفو عمن يعفو عن عباده ، ﴿ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ ﴾
- والله تبارك اسمه يرحم الذين ينظرون المعسر ، ﴿ وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ ۚ وَأَن تَصَدَّقُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾
- والله ﷻ يحب الصابرين من عباده ، ﴿ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ ، ﴿ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾

والصبر أكثر ما يكون ، وأعظم ما يكون في معاملة الناس .

روى البخاري في صحيحه أن رجلا أساء بين يدى رسول الله ﷺ حين رآه يوزع على الناس الذهب بنسب مختلفة ؛ لأنه ﷺ كان يعطى بعض الناس يتألفهم ، وقد قال : "إنى لأعطى الرجل وأمنع الرجل ، والذي أمنعه أحب إلى ممن أعطيه ، أكله إلى إيمانه ، وإنى أعطى أناسا أتألفهم" .

لكن الرجل لم يفطن إلى ذلك ، فقال : "هذه قسمة ما أريد بها وجه الله" ، فقال عليه الصلاة والسلام : "رحم الله أخى موسى ، أوذي بأكثر من هذا فصبر" .

وفي مسألة اعتزال الناس ، أو مخالطتهم مع الصبر على أذاهم بين النبي ﷺ أن "الذي يخالط الناس ويصبر على أذاهم خير من الذي يعتزلهم" .

ولابد من الصبر في مخالطة الناس ؛ لأن فيهم الجاهل ، وفيهم الجانى ، أي جانى الطباع .

وقد قال الله تعالى : ﴿ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَوٰةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا ۖ لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكَ ۗ وَالْعَـٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ ﴾

وعلينا أن نصبر في مجال المعاملة ، بأن يصبر الأستاذ على جهل تلميذه ، ويعلمه برفق ابتغاء وجه الله الذي جعل العلماء ورثة الأنبياء .

وأن يصبر التلميذ على صحبة شيخه ، ﴿ قَالَ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا ﴾

وأن يصبر المرء على تربية أولاده ، فإن كثيرا من الناس يسألون العلماء عن دعاء معين ، أو قراءة آيات معينة يجدون أبناءهم بعدها في طاعة وتوفيق وإحسان ، وما ذلك إلا لأنهم لا يجدون في صدورهم مساحات للصبر ، وقد قال الله تعالى : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾

وقد قال الله تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ صَبَرُواْ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ ﴾

وأحسب أن الصبر لا يكون ابتغاء وجه الله ﷻ إلا إذا كان المرء قادرا على الانتقام ممن أساء إليه ، لكنه وجد ساحة الصبر أوسع .

بدليل سياق الآية الكريمة (٢٢) من سورة الرعد ، حيث يقول الله ﷻ : ﴿ وَٱلَّذِينَ صَبَرُواْ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ

مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾

فالذين يدرءون بالحسنة السيئة بلا شك صابرون ، وصبرهم ابتغاء وجه ربهم القائل : ﴿ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾

فالضجر الذي لا يعرف الصبر يدفع السيئة بالسيئة وإن هلك ، أي وإن كان عاجزا عن دفع سيئة أخرى تأتيه من جراء سيئته التي دفع بها السيئة الأولى ؛ لأنه وصل إلى لحظة العمى التي لا يرى فيها إلا طريق الشر ، فهو يضرب من يستطيع قتله بعد أن يضربه ، ويشتم من يستطيع أن يبلغ به أذاه مبلغه إثر هذه الشتيمة .

والصبر لوجه الله سوف يكون صبرا كما قال الله تعالى جميلا ، وهل يؤدى الجميل إلا إلى جمال !

وسوف ترى أصحابه كما قال الله ﷻ : ﴿ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِىٍّ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا۟ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا۟ وَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾

أي هم الأقوياء الذين تراهم في مصابهم كأنهم معافون من كل ابتلاء ومصيبة ، فهم لا يحزنون ولا يحزنون .

ألا ترى إلى قوله ﷻ : ﴿ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾ إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ﴾

ولعلك تأنس من ذلك كله أن وجه الحياة سوف يتغير إذا كان العمل فيها كله لله ، من أول الجهاد الذي يكون لتكون كلمة الله هي العليا ، لا للحمية ولا للمغنم ، وإن كانت فيه الغنيمة التي أحلها الله ﷻ لهذه الأمة ، ما أحلها لأمة قبلها .

وقد جاء رجل يسأل النبي ﷺ عن الجهاد في سبيل الله ، متى يكون حقا في سبيل الله ، فذكر له أن الرجل يقاتل حمية (أي تعصبا لبنى قبيلته) ، ويقاتل مغنما (أي لطلب الغنيمة) فقال له ﷺ : "من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله" .

وكذا كل عمل من الأعمال الخالصة لوجه الله الكريم ، ومنها الصبر على النحو الذي ذكرته آنفا سوف يغير من وجه الحياة ، فسوف ترى وجها للصابرين غير الوجه الذي نعرف .

فالوجه الذي نعرف من الصابرين وجه عبوس فيه من تجاعيد اليأس ما يغلب على تجاعيد السن ، فإذا كان الصبر على الوجه الذي ذكرت في ضوء آية آل عمران رأينا وجها نضرا كما خلقه الله برغم المصاب .

وما تنفقون إلا ابتغاء وجه الله

وفي الآية (٢٧٢) من سورة البقرة : ﴿ لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۗ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنفُسِكُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ ٱللَّهِ ۚ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴾

أي أن الإنفاق لا يكون إلا ابتغاء ثواب الله ﷻ وفضله .

قال ابن كثير في تفسيره ١ / ٣٢٤ : "قال الحسن البصري : نفقة المؤمن لنفسه ، ولا ينفق المؤمن إذا أنفق إلا ابتغاء وجه الله ، وقال عطاء الخراساني : يعني إذا أعطيت لوجه الله فلا عليك ما كان عمله ، وهذا معنى حسن ، وحاصله أن المتصدق إذا تصدق ابتغاء وجه الله فقد وقع أجره على الله ، ولا عليه في نفس الأمر لمن أصاب ، ألبر أم فاجر أو مستحق أو غيره ، وهو مثاب على قصده ، ومستند هذا تمام الآية : ﴿ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴾

والحديث المخرج في الصحيحين من طريق أبي الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : قال رجل : لأتصدقن الليلة بصدقة ، فخرج بصدقته فوضعها في يد زانية ، فأصبح الناس يتحدثون : تصدق الليلة على زانية ، فقال : اللهم لك الحمد على زانية ، لأتصدقنِ الليلة بصدقة ، ، فوضعها في يد غنى ، فأصبحوا يتحدثون : تصدق الليلة على غنى ، فقال : اللهم لك الحمد على غنى ، لأتصدقن الليلة بصدقة ، فخرج ، فوضعها في يد سارق ؛ فأصبحوا يتحدثون : تصدق الليلة على سارق ، فقال : اللهم لك الحمد على زانية وعلى غنى وعلى سارق ، فأُتي فقيل له : أما صدقتك فقد قبلت ، وأما الزانية فلعلها أن تستعف بها عن زناها ، ولعل الغنى يعتبر ، فينفق مما أعطاه الله ، ولعل السارق أن يستعف بها عن سرقته" .

هذا ما ذكره ابن كثير ، وهذا الحديث دليل على ما نقل عن عطاء الخراساني من أن المتصدق لوجه الله لا يعنيه إذا كان من تصدق عليه بارا أو فاجرا ، فالثواب قد حصل له ؛ لأنه ما قصد بنفقته إلا وجه الله ﷻ .

ولعل هذا يضيء لنا الطريق أمام ظاهرة شاعت ، وهي أن كثيرا من الناس يسأل عن المتصدق عليه ، يريدون متصدقا عليه باراً ، يريدون مسكيناً صواماً قواماً ، مؤدباً مهذباً .

والله ﷻ يدعو إلى الإنفاق على المساكين وغيرهم دون تقيد بصلاح ، فالمسكين محتاج ، ومن سد حاجته لوجه الله فقد تقبل الله منه ، وأثابه ، وكم قلت : إن الغنى قد يكون بارا بوالديه ، فيدخله الله الجنة ببره ، فيما يدخل والديه النار إن شاء بسبب فسادهما ، وظلمهما ، ومجاوزتهما شرع الله .

فعليك أن تبر بوالديك ، لأنهما والداك ، وعليك أن تطعم المسكين ؛ لأنه مسكين ، وعليك أن تحسن إلى جارك ؛ لأنه جارك .

وقد وصاك الله تعالى بهؤلاء وغيرهم ، فاسمع لربك ولا تسمع لهواك ، وأطع مولاك ، لا تطع غيره من أصحاب الفلسفة الكاذبة ، الذين يبتدعون أقوالا ليس لها في هذا الدين من سند ، فقد كان الصديق رضي الله عنه ينفق على قريب له أساء ، ولما أقسم أن يمنعه أنزل الله تعالى في ذلك قوله : ﴿ وَلَا يَأْتَلِ أُولُوا الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ أَن يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ۖ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ ۗ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾

فكَفَّرَ الصديق عن يمينه ورجع على قريبه الذي كان يعطيه ، وهو يقول : "بلى أحب أن يغفر الله لى" .

ولو كان المنع جزاء الإساءة لقال الله للصديق : أحسنت ، فإنه عض اليد التي امتدت إليه بخير ، وهو في الحقيقة ما عض يد أبي بكر ، وإنما عض قلبه ووجدانه ؛ إذ تكلم في عرض ابنته الشريفة الصديقة بنت الصديق رضي الله عنهما وهي زوج النبي ﷺ .

ولكنه مع هذه الإساءة نهاه عن القسم بالحرمان ، وأمره بالعفو والصفح ابتغاء مغفرة الله ﷻ : ﴿ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ ﴾

فقال أبو بكر : بلى أحب أن يغفر الله لى ، وأعاد إليه ما كان قد منعه ؛ لأن وجه الله هو المقصود ، وإذا كان وجه الله هو المقصود لم ينظر الناس إلى إساءة مسيء ، ولا إلى خلق سيء من أخلاقه ، بل يتركون ذلك كله لله ﷻ الذي يحاسب عباده ، وإن شاء غفر لهم ، وإن شاء عذبهم .

أما أن ينظر الناس إلى أخلاق الناس ، فمن رأوه على خلق حسن أعطوه ، ومن رأوه على غيره منعوه ، فذلك يدل على أنهم لا يعطون لوجه الله ، وإنما يعطون لوجه الناس ، فمثلهم مثل الإمعة الذي يقول : إن أحسن الناس أحسنت ، وإن أساءوا أسأت .

وقد قال عليه الصلاة والسلام : "لا يكن أحدكم إمعة ، يقول : إن أحسن الناس أحسنت وإن أساءوا أسأت ، وإنما وطنوا أنفسكم على أنه إذا أحسن الناس أن تحسنوا ، وإن أساءوا ألا تظلموا" .

وحرمان المحتاج من الظلم بمكان ، لمنافاته وجه الله ﷻ .

فمن أنفق ابتغاء وجه الله كان كما ذكر العلماء لا يعنيه البر أصاب أم الفاجر ، المحسن أم المسيء .

والصدقة قبل أن تنفع المتصدق عليه تنفع المتصدق نفسه الذي هو في ظل صدقته حتى يحكم الله بين العباد كما جاء في الحديث الشريف .

وقد قال الله تعالى : ﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾

وقال ﷻ : ﴿ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾

وإذا كانت الصدقة تنفع المتصدق نفسه قبل أن تنفع غيره كان عليه أن يحرص على ما ينفعه .

ولن تنفعه صدقته إلا إذا كانت لوجه الله ﷻ لا لوجه الناس ، وكل الناس محروم إلا من وفقه الله ﷻ إلى ابتغاء وجهه .

وما أكثر الناس الذين كانت أيديهم تجري بأنهار الخير ، ثم توقفت ، لا أقول فجأة ، وإنما لأنهم رأوا الذين يحسنون إليهم لا يستحقون الإحسان ، يقولون لك إذا سألتهم عن سبب توقفهم قالوا : وجدنا أنه لا أحد يستحق ، أو اكتشفنا أنه لا أحد يستحق ، أو وجدناه كان يأخذ منا صدقاتنا وينفقها على أعدائنا أو يصنع بها بارودا من أجل أن يحاربنا به ، أو قلنا إنه موسى فطلع فرعون ، أو ... أو .... أو ....

وما أكثر العلل التي يذكرونها ، وكلها تندرج تحت شيء واحد هو أن ذلك الإنسان لا يستحق .

ودرس (وجه الله) هو الكفيل الذي يكاد يكون هو الوحيد من أجل استمرار العطاء .

بل هو الوحيد الكفيل باستمرار الإنفاق في العمل بغض النظر عن فلسفة (على قد فلوسهم) .

والله ما حملتك إلا لوجه الله

كلمات ختمت بها قصة من أروع القصص ، وأسدل بها ستار موقف من أنبل المواقف في سيرة المعصوم سيدنا رسول الله ﷺ ، قالها كعب بن عجرة لأخيه في دين الله واثلة بن الأسقع الليثي .

كان واثلة قد أسلم وبايع رسول الله ﷺ على الطاقة ، أي على أن يبذل أقصى طاقته في طاعة الله ﷻ ، ورسوله ﷺ ، ونادى منادى الغزو ، والانطلاق مع رسول الله ﷺ إلى تبوك ، ولم يكن عند واثلة بن الأسقع دابة تحمله ، لكنه رضي الله عنه وجد أن من طاقته التي بايع عليها رسول الله ﷺ أن ينادى في الناس : "من رجل يحملني وله نصف ما يفتح الله به عليّ" ، فقال كعب بن عجرة رضي الله عنه : "أنا أحملك" .

وحمله على بعيره ، يتناوبان عليه ، هذا يركب مرحلة ، وهذا يركب مرحلة على ما هي عادتهم في التعاقب .

وتحققت غاية واثلة بن الأسقع ، وجاهد مع رسول الله ﷺ في جيش العسرة ، وانضم إلى سارية خالد بن الوليد ، وأصاب منها نعما ، فجاء بنصفه إلى أخيه كعب بن عجرة ، وناداه ، فخرج إليه ، فقال له :

- "خذ ، هذا مالك الذي اتفقنا عليه ، بارك الله لك فيه"

فابتسم كعب ، وقال لواثلة :

- "أتظنني قد حملتك من أجل هذا ؟ ، والله ما حملتك إلا لوجه الله ، بارك الله لك فيما أعطاك" ، ولم يأخذ منه شيئا

ذلك موقف من أنبل المواقف ، وقصته من أجمل القصص في السيرة العطرة

وفي الفقه الإسلامي باب الهبة ، وقد قسمها الفقهاء قسمين :

(أ) هبة بهدف الرد ، أي أن تهب إنسانا شيئا بهدف أن يرده إليك ، وفيها يقول الله تعالى : ﴿ وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ﴾ ، أي لا تكن صاحب منة على الناس بهدف أن تستكثر من عطاياهم .

(ب) وهبة بهدف الثواب من الله ﷻ ، فأنت تهب إنسانا هبة معينة من أجل أن يثيبك الله ﷻ عليها ، لا بهدف أن يعطيك مثل الذي أعطيته ، أو خيرا منه ، كما قال الله تعالى : ﴿ وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا۟ بِأَحْسَنَ مِنْهَآ أَوْ رُدُّوهَآ ۗ ﴾

وقد كتبت مقالا نشرته جريدة الأهرام تحت عنوان (لله لا تعنى المجانية) ، وخلاصته أن كثيرا من الناس يظنون أن العمل لا يكون لوجه الله ﷻ إلا إذا كان مجانا كالهبة الثانية ، ولكن ذلك غير صحيح بدليل أن

كليم الله موسى عليه السلام قال للعبد الصالح الذي آتاه الله رحمة من عنده ، وعلمه من لدنه علما : ﴿ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

وما كان ذلك إلا لوجه الله ، والأجير حين يأخذ مقابلا على عمله إنما يعمل لوجه الله الذي كلفه بالعمل ، فقال : ﴿ وَقُلِ ٱعْمَلُوا۟ ﴾

ولم يقل ربنا تعالى : "وقل اعملوا بلا أجر" ، وقد جاء في الذكر الحكيم : ﴿ قَالَ إِنِّىٓ أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ٱبْنَتَىَّ هَٰتَيْنِ عَلَىٰٓ أَن تَأْجُرَنِى ثَمَٰنِىَ حِجَجٍ ۖ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ ۖ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ ۚ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾

وقد أجر موسى عليه السلام نفسه من أجل تحصين نفسه ، وحياته كلها لوجه الله ﷻ ، وقد قال ربنا تعالى في خواتيم الأنعام : ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾

والمحيا : مصدر ميمى ، يشمل المكان والزمان والحدث ، والحركة والسكون ، واليقظة والمنام ، وليست هناك حياة تستقيم دون مقابل ، وقد قال ربنا تعالى : ﴿ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ۗ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾

فالحياة تبادل بين الناس في المنافع ، وهذا معنى أن المحيا لله ، أي كل شيء في هذه الحياة إنما هو لله تعالى مع وجود الأجر والربح والمتاجرة ، والمضاربة .

المهم أن يكون في ذلك ما يأتي :

(١) أمانة في البيع والشراء

(٢) وفاء بالعقود والعهود

(٣) الرحمة بالناس

(٤) التجاوز عن المعسر

ففي الحديث : "رحم الله رجلا سمحا إذا باع ، سمحا إذا اشترى ، سمحا إذا قضى" .

وفيه كذلك : "حوسب رجل ممن كان قبلكم ، ولم يكن له من الخير شيء إلا أنه كان يعامل الناس ، وكان يقول لغلمانه : تجاوزوا عن المعسر ؛ فقال الله تعالى لملائكته : نحن أولى بذلك منه ، تجاوزوا عنه" .

فانظر إلى هذا الرجل الذي تجاوز الله عنه ، وأدخله الجنة ما كان يقول لغلمانه : تجاوزوا عن كل الناس ، وإنما قال لهم : تجاوزوا عن المعسر ، أي ارحموه ، فما كان ثمنه عشرة فليأخذه بسبعة ، أو اتركوه له .

أما غير المعسر فهو يأخذ منه مقابل سلعته كي يشترى الجديد ، وكي يطعم نفسه وولده ، وإلا فكيف يعيش .

وقد استعذب المهاجرون بئرا في المدينة المنورة تسمى (بئر رومة) كانت لرجل من غفار ؛ فقال له النبي ﷺ : "أتبيعها بعين في الجنة ؟" .

فقال الرجل : "لا أستطيع يا رسول الله إنما هي قوتي وقوت عيالي"

فتركه عليه الصلاة والسلام ، وقال : "من يشترى بئر رومة ليشرب منها المسلمون وله الجنة ؟"

فاشتراها عثمان بن عفان ﷺ ، وجعل دلوه منها كدلو أي إنسان ، لا يزيد عليه .

وذلك لأن عثمان رضي الله عنه رجل تاجر غني ، يقدر على شرائها ، ومن أين حصل عثمان على المال إلا من مقابل أخذه من الناس في مقابل ما يأخذونه من تجارته

والنبي ﷺ لم يحكم على من اعتذر أن يهبها للمسلمين دون مقابل بأنه كافر ، أو منافق ، أو لا يريد وجه الله ، وإنما عذره ، ودعا القادرين إلى شرائها ، ليأخذ الرجل ثمنها ، ويعمل به في مجال آخر يطعم من ربحه نفسه ومن تلزمه نفقتهم .

نعم يكون المحيا لله ، أي لوجه الله إذا كان الحى في نور الله الذي يمشى به في الناس ، فهو يتقى الله في عمله ، ويتقنه ، ويخلص فيه ، وتقوى الله في العمل إنما هي عين ابتغاء وجه الله ﷻ ، لأنها لا تقدر بثمن ، إنما يأخذ ما يأخذ نظير الوقت الذي أنفقه وهو عمره ، والعاقل المكلف يعلم أن العمر غال نفيس .

وقد تبين لنا من نور الله ﷻ أي من أحكام شريعته الغراء أن العمل يكون في مقابله أجر .

وقد روى البخاري في حديث الغار أن أحد الثلاثة الذين دخلوه ؛ فأطبقت عليهم صخرة فسدت بابه ، فكأنهم قد دفنوا على قيد الحياة ، ورأوا أن يتوسلوا إلى الله تعالى بصالح أعمالهم ، كان أحدهم قد تركه أجير عنده ، وترك عنده أجر يوم ، فاستثمره له ، فلما جاءه بعد أعوام ، وذكره بما له عنده قال : خذ ، كل هذا ، فكل هذا ملكك ، ولم يصدق الرجل أن أجر يوم قد صار هكذا أموالا كثيرة ، لكنه أعطاه بالفعل ولم يكن يسخر منه كما توهم .

وقد انكشفت الصخرة ، وخرج الثلاثة ، فهذا أحد الذين توسلوا إلى الله ﷻ بصالح عمله ومنه الاحتفاظ بأجر الأجير واستثماره له ، وتوفيته إياه .

والله ﷻ يقول : ﴿ وَلَا تُؤْتُوا۟ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ ٱلَّتِى جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَٰمًا وَٱرْزُقُوهُمْ فِيهَا ﴾

ما قال ربنا تعالى "وارزقوهم منها" ، وإنما قال : "وارزقوهم فيها"

وفي ذلك دليل على أن وصي السفيه – يتيما كان أو غير يتيم – يجب أن يستثمر له ماله حتى لا يتناقص مع الأيام "خذ من التل يختل" وحتى لا تأكله الزكاة .

وقد روى ابن عبد البر رحمه الله قول عمر بن الخطاب رضي الله عنه "فرقوا بين المنايا واجعلوا الرأس رأسين" .

أي اعزلوا بين الدابة الصحيحة والمريضة حتى لا تعديها ، واستثمروا الأموال ، فاجعلوا الرأس رأسين .

ولن يكون هناك استثمار بدفع الأموال دون مقابل

وقد أرسل النبي ﷺ حكيم بن حزام رضي الله عنه ليشترى شاة بدرهم ، وأعطاه الدرهم ، فاشترى به شاتين ، وباع إحداهما بدرهم ، وعاد إلى النبي ﷺ بالشاة والدرهم ، فأمره أن يذبح الشاة ، وأن يتصدق بالدرهم ، ودعا له بالبركة .

ما أرسل النبي ﷺ حكيما ليأت بالشاة لوجه الله ، أي مجانا ، وإنما أعطاه الدرهم ثمن الشاة والدرهم والشاة لوجه الله ﷻ .

وفي كتب الفقه ، ومنها المغنى لابن قدامة أنه إذا توفر لدينا مؤذنان ، أحدهما جميل الصوت ويسأل أجرا على الأذان ، والثانى ليس جميل الصوت ، ويريد أن يؤذن مجانا آثرنا جميل الصوت وأعطيناه أجره على الآخر لأن المؤذن يجب أن يكون جميل الصوت ؛ لأنه يدعو الناس إلى الله ﷻ ، أي إلى إقامة الصلاة ، وقد جاء عبد الله بن زيد الأنصارى بالأذان فقال له ﷺ : "لقنه بلالا فإنه أندى منك صوتا ، أي أجمل منك صوتا" .

فمن قال إن المؤذن الذي يطلب أجرا إنه لا يؤذن لوجه الله .

وقد أعطى النبي ﷺ أبا محذورة راتباً على أذانه بالبيت الحرام ، حيث أعجبه صوته ، وكان جميل الصوت ، صاحب نغمات قال فيها الشاعر :

ألا ورب الكعبة المستورة وما تلا محمد من سورة
والنغمات من أبى محذورة لأفعلن فعلة مذكورة

فأين هذه النغمات منا اليوم ، ومعظم الذي نسمعه من المؤذنين (جعجعات) ، وفرغنا الأصوات الندية للأغانى والرقصات وعلينا أن نتقى الله في الناس فنسمعهم الصوت الذي لا يؤذي آذانهم ، ويفزعهم ، بل الذي يطربهم ويشجعهم على إقامة الصلاة ، وتلبية نداء الله الذي يتكرر في كل يوم وليلة خمس مرات .

فمن وجد في نفسه غنى عن أخذ هذا المال وكان جميل الصوت ، فتطوع وأذن فجزاه الله خير الجزاء وكان أذانه لوجه الله .

ومن وجد نفسه في حاجة إلى مقابل ، يسد به حاجته وحاجة عياله أخذه دون غضاضة ، وكان أذانه أيضا لوجه الله ؛ لأن المحيا كله لله ﷻ بما فيه من كسب حلال .

نعم ، إن الذي يعمل ويبيت كالا من عمله يبيت كما قال رسول الله ﷺ مغفورا له .

ألم يكن يعمل ويكسب ؟ ، فكيف يكون عمله إذ بات مغفورا له إلا لوجه الله ﷻ ، الذي عف به نفسه وامرأته وعياله ؛ فكفى بالمرء إثما أن يضيع من يعول .

والمرء يضيع من يعول بأحد أمرين :

(أ) إما أن يقعد عن العمل ، وهو قادر عليه

(ب) وإما بسفاهة رأيه ، وسوء فكره ، حيث يظن أن عمله لن يكون لوجه الله ﷻ إلا إذا كان مجانا ، أو أن يعمل ويربح ثم يسرف ، أو ينفق جميع ماله ظانا أنه في سبيل الله ، ويترك عياله .

والله ﷻ يقول : ﴿ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ ۚ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ ۙ وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِى ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ ۙ وَءَاخَرُونَ يُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ ۚ ﴾

وفي البخاري وغيره من الصحيح يقول النبي ﷺ : "من أم بالناس فليخفف فإن منهم المريض والمسافر وذا الحاجة" .

وفي كتب السنة والفقه تفصيل عظيم في هذا السياق ، ومنها الروض المربع الذي جاء فيه أن من خشي على متاعه ، أو خاف فوات رفقته في سفر جاز له أن يترك الجماعة ، فانظر إلى حرص هذا الدين أن يوفر المسلم حياة كريمة لنفسه ولأسرته ، بل لأمته جميعا .

وقد قال الله ﷻ : ﴿ وَلَا تَجْعَلُوا۟ ٱللَّهَ عُرْضَةً لِّأَيْمَـٰنِكُمْ أَن تَبَرُّوا۟ وَتَتَّقُوا۟ وَتُصْلِحُوا۟ بَيْنَ ٱلنَّاسِ ۚ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾

أي لا تجعلوا من اليمين حجر عثرة لكيلا تفعلوا الخير ، فافعلوه ، وكفروا عن أيمانكم التي حلفتم .

وقد كان رسول الله ﷺ إذا حلف على شيء ، ورأى غيره خيرا منه كفر عن يمينه وفعل الذي فيه الخير .

هذا هو الإسلام الذي نرجو الله تعالى أن يفقهنا فيه ، حتى لا يتسلط علينا الشيطان ، فيلبس علينا ديننا ، ويوهمنا بأن عملنا لا يكون لوجه الله تعالى إلا إذا كان مجانا ، فنضيع ، ونضيع من وراءنا ، ونتخلف ، وتتخلف أمتنا .

فضلا عن اتهام بعضنا بعضا بفساد الدين ، فقد سمعت أكثر من متحدث من الذين يحملون عليا الشهادات الجامعية ، ويرفعون راية التنوير والثقافة يقول : أنا أسمع فلانا ؛ لأنه لا يتقاضى أجرا على دروسه الدينية ، ولا أسمع فلانا ، لأنه يتاجر في الدين ويشترى بآيات الله ثمنا .

وأعوذ بالله العلى العظيم من هذا الجهل الذي يؤدى إلى مثل هذه الفتنة السوداء ، والتي توقع الناس في لبس واضطراب عظيم ، فإن الدين ليس محلا للتجارة ، وقد كان كبار العلماء من السلف يتقاضون أجورا عظيمة نظير الدروس التي كانوا يؤدونها في المسجد .

وفي ترجمة شيخ الإسلام زكريا الأنصاري رحمه الله وجدنا أنه كان في أول عهده بالعلم يمشي بالليل يلتقط قشر البطيخ ، ويغسله ويأكله ، وفتح الله عليه فصار درسه بألوف مؤلفة ، وما قال أحد من العلماء إنه يتاجر بالدين .

وقد ألف العلامة أبو يحي زكريا الفراء كتابه العظيم "معانى القرآن" في قصر عظيم من قصور الرشيد ، توفرت فيه كل أسباب الحياة الناعمة .

وقد سلمه الوراقين يكتبون نسخه ، ويبيعونها للناس ، وقد كانوا يقومون بدور المطابع اليوم ، حيث لم تكن هناك مطابع .

لكنه لما علم بأنهم يغالون في السعر أذاع خبرا بأنه سوف يخرج نسخة منه جديدة يستغنى بها الناس عن النسخة التي في أيدى الوراقين ، فجاءوه واعتذروا ، وباعوا بالسعر المعقول القديم .

وما قال أحد إنه تاجر بالدين ، وما اتهم أحد أحدا من الوراقين بأنه يتاجر بالدين ، لأنهم يبيعون العلم ، إنما يبيعون الورق ، والورق له ثمن ، ويبيعون جهدهم ، ووقتهم ، ويربحون ليأكلوا ، ويأكل أولادهم .

وليس معنى قول الله تعالى : ﴿ وَيَشْتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ﴾ أنهم يأخذون أجرا على تعليم الناس كلام الله أو العلم ، وإنما معناه أنهم يحرفون الكلم ، يكتبونه بأيديهم موافقة لهوى حاكم ، أو ذي سلطان أو مال ، ويقولون كما قال ربنا تعالى : ﴿ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾

وهذا بخلاف العالم الذي يحبس نفسه من أجل تعليم الناس دينهم ، إنما يتقاضى أجره نظير هذا الحبس ، لا لأنه يتاجر بالدين .

وقد صار هذا الفهم الكئيب المظلم سببا في شيوع الدجل في المجتمع ، فالدجال المحترف يعلم أن الناس يقبلون على المجانية ، وأنهم يصدقونه لأنه لا يأخذ شيئا منهم ، ومعنى ذلك فيما يزعم ويزعمون أنه يعمل لوجه الله ، وأنه موفق ، وأن بينه وبين الله سرا عظيما لا يتقاضى عنه أجرا ، فهو ليس من أصحاب الدنيا ، وما دام كذلك فهو من أهل الله ﷻ

وقد سمعت وسمع القارئ الكريم مثلى كثيرا من الناس يقولون : فلان على حق وعلى علم وصاحب سر ، فإنه لا يأخذ مليما من أحد .

كثر هؤلاء عند الدجالين ، وفي البداية لا يسأل الدجال الناس شيئا ، لكن بعد مرتين أو ثلاث مرات نراه يسألهم دم قلوبهم ، ويقينا يوهمهم بأن هذا ليس له ، إنما هو للجن ، وتلك طلبات العفاريت ، إنهم يريدون كذا وكذا من أجل أن يخرج أخوهم أو ولدهم الصغير عفراكوش من جسد العذراء الجميلة ، خريجة الجامعة التي فتن بها ، وهو بها معجب وعاشق ، فهي معشوقة ، كما قال أبو معشر ، وهل يكذب أبو معشر !

عندئذ يقول الناس للدجال : صدقت فإننا نعرفك ، ونحن على عهد قديم بك ، لو كنت تسأل مالا لسألته من أول مرة ، لكنك جزاك الله خيرا بدأت معنا مجانا ، وهذه بالفعل ليست مطالبك ، وإنما هي مطالب من نسأل الله تعالى أن يجعل كلامنا خفيفا عليهم (دستور ... دستور يا اسيادنا) .

وقريب من هذا قول والد العروس لخطيب ابنته : نحن لا نريد شيئا ، ليس لنا طلبات ، إنما نشترى رجلا يصون ابنتنا ، ويحفظها ويتقي الله فيها .

وبعد قليل حين تدب الرجل عند من تحب يقول له : ألا تأتي بالكبار عندك لنتفق ؟

- على أي شيء يا عمى ؟

- أبدا ، على العادى يا ولدى ، الذي يفعله الناس ، من شبكة ومهر ومؤخر ، والذي منه

والألم كل الألم في الذي منه الذي لا طاقة للشاب به ، ولا قدرة له عليه

وقد رأيت بعض الناس يكاد يصعق حين يسمع بأجر قارئ للقرآن مشهور ، أو أجر عالم كبير ، ويقول : ما كنت أصدق أن يطلب هذا فلوساً .

وقائل هذا قد يكون صاحب شركة ، أو مؤسسة ، صاحب ملايين ، وهو بلا شك رجل ليس بخيلا ، وإنما صعقه الخبر ؛ لاعتقاده أن مثل هؤلاء يعملون لوجه الله .

فهل عملهم ينبغي أن يكون لوجه الله أي بالمجان ، وعمله هو لوجه الشيطان حيث يبيع ويربح ، ويتكسب ويضيف في كل ساعة مليونا جديدا إلى ملايينه !

وهل يظن مثل هذا الرجل أن ذلك القارئ أو العالم ملك من ملائكة الله ، لا يأكل ولا يشرب ، وليس وراءه فواتير الحياة التي يعانى منها كل إنسان ، فكيف تستقيم حياته مع المجانية ؟

إن من فقه الدين أن يعلم الناس أن وجه الله ﷻ لا يكون أبدا مجانا ، وإنما يكون بحسب حال العاملين ، فمن كان في غنى عن أجره في عمل من الأعمال لأن لديه غيره كانت المجانية أوفق له وأفضل .

ومن كان في حاجة إلى أجره أخذه دون غضاضة ، وكان عمله كذلك لوجه الله ﷻ الذي لا يضيع أجر من أحسن عملا ، قال ﷻ : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلاً ﴾

والذي يخرج زكاة ماله إنما يخرج تلك الزكاة لوجه الله ﷻ

وقد قال ربنا تعالى : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ۝٢ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ۝٣ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ﴾

فلن يؤدي الزكاة إلا من فعل أي عمل من أجل أن يبلغ ماله نصابها ، ويخرجها ، فكيف يتسنى له ذلك إلا إذا كان يعمل ويتقاضى على عمله أجراً .

إذ لا شك أنه لو عمل بدون أجر فلن يكون من أهل الزكاة ؛ لأنه لن يملك مالا أصلا ، فكيف يتصور عاقل أن العمل إنما يكون لوجه الله تعالى إذا كان بالمجان .

وكيف يستثنى من ذلك عالم ، وقد قال الله في إسماعيل عليه السلام : ﴿ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرْضِيًّا ﴾

ويخاطب ربنا تعالى أمهات المؤمنين رضي الله عنهن بقوله : ﴿ وَأَقِمْنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ﴾

أيؤدى أهل الأنبياء الزكاة بدون مال لديهم ، وقد قال عيسى عليه السلام في المهد : ﴿ وَأَوْصَٰنِى بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ۝٣١ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِى وَلَمْ يَجْعَلْنِى جَبَّارًا شَقِيًّا ۝٣٢ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴾

والصدقة كذلك إنما يتصدق المتصدق لوجه الله ﷻ ، ومن ثم فهو لا يتبعها منى ولا أذى .

وجه الله تعالى ووجه الناس

خرج ابن عبد البر الحديث الذي جاء فيه أن رجلا قال للنبى ﷺ إنه يتصدق الصدقة في السر ، فيطلع عليها الناس ، فيسره ذلك ؛ فقال له ﷺ : "لك أجر السر وأجر العلانية" .

ما قال له النبي ﷺ وقد عرف أنه يسره أن يطلع الناس على صدقته : أحبطت بهذا السرور صدقتك ، فأنت به لم تكن صدقتك لوجه الله .

كما يدعى بعض الناس الذين يرون الدين عبوسا وحزنا ، وأن ما كان لوجه الله ﷻ يجب أن يكون طى الكتمان ، وأنه لو فرض واطلع عليه الناس فيجب أن يحزن ، ويأسف ، ويقول : ما كان يجب أن يطلع على ذلك أحد من الناس ؛ فقد عملته لوجه الله .

كيف والله تعالى يقول في آية البقرة : ﴿ إِن تُبْدُوا۟ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِىَ ۖ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ ﴾

أليس معنى تبدوا : تظهروا وتعلنوا !

المهم أن تكون نية إبدائها أن يتأسى به الناس ، فيتصدقوا مثلما تصدق ، ويحاكوه في عمل الصالحات التي من أفضلها الصدقة ، فالصدقة أفضل العبادات .

وقد ذكر الشاطبي رحمه الله في كتابه (الموافقات) أن الجمع بين الغرض الأساسي والثانوي لا بأس به ، أي أن يحضر الصلاة جماعة إقامة لشعائر الله ، وتعظيما لها ، ومع ذلك يستأنس بإخوانه في المسجد ، بأن يحدثهم ويلاطفهم ، ويسره أن يراهم ، ويتكلم معهم ، ويذهب بأنسه بهم وحشة نفسه .

وقد قال الناس لرجل رأوه في الحج يكري (يؤجر) دوابه للحجيج بأجر : لا حج لك ، فأحزنه ذلك ، وذهب إلى النبي ﷺ وقص عليه ما كان ، فسأله عن أعمال الحج هل قام بها كما قام الناس ، فقال : نعم ، فقال له : لك حج ، وأنزل الله تعالى في ذلك قوله : ﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ ﴾

أي أن يحج الحاج ويربح من عمل يقوم به ، لا يتعارض وما يؤديه من النسك .

وسع الله ولكن الناس يضيقون ، وأسعد الله ولكن الناس يحزنون ، وما هذا بفقه ، فمن يرد الله به خيرا يفقهه في الدين .

وقد قال النبي ﷺ : "لا يتحدث الناس أن محمدا يقتل أصحابه"

نعم يسعده ﷺ أن يقول الناس : إن محمدا لا يقتل أصحابه ، فهل ترك ﷺ قتل من قيل له : نقتله يا رسول الله من أجل أن يقول الناس إنه لا يقتل أصحابه؟

كيف ولو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطع محمد ﷺ يدها !

وقد عرفت كتب السنة والتراجم والسير كتاب المناقب ، وجاء فيه من مناقب المهاجرين ، ومناقب الأنصار وبعض الرجال والنساء الكثير ، فهل ذكرت تلك المناقب من أجل المديح الذي تجلت فيه الأعمال الكبار لوجه الناس أم كانت لوجه الله ﷻ ، وعرفها الناس فمدحوها .

وحين قال عليه الصلاة والسلام : "من لا يشكر الناس لا يشكر الله" ، أليس معناه أن يشكر الناس بعضهم بعضا على ما قدموا من خير .

فهل يفعل أهل الخير ذلك ابتغاء أن يشكرهم الناس أم فعلوه ابتداء لوجه الله ﷻ !

لا شك أنهم فعلوه وسوف يظلون يفعلونه لوجه الله ﷻ ، فإن شكرهم الناس كان في ذلك خير كثير لهم وللشاكرين ، وأدى ذلك إلى حسن العشرة .

وحين تمثلت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها بقول الشاعر :

مات الذين يعاش في أكنافهم وبقيت في كنف كجلد الأجرب

ألم يكن ذلك من باب الإشادة بزمان الأبرار الذين يألفون ويؤلفون ، ويوطئون أكنافا .

وقد قال إبراهيم عليه السلام : ﴿ وَٱجْعَل لِّى لِسَانَ صِدْقٍ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴾

أي اجعل سيرتي حسنة بين الناس ، وقال الله ﷻ فيه ، وفي غيره من النبيين : ﴿ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴾

أي تركنا له سيرة حسنة فيمن يأتون من بعده إلى يوم الدين .

وحين جاءت صفية رضي الله عنها تتكلم إليه ﷺ وهو معتكف ، فلما خرج يودعها رآه رجلان من الأنصار فقال : على رسلكما ، إنها صفية بنت حيي ، فقالا : سبحان الله يا رسول الله ، أي كبر عليهما ذلك ، فمن ذا الذي يشك في رسول الله ﷺ .

فهل كان النبي ﷺ يفعل ذلك لوجه الناس ، أم كان يفعله لوجه الله حيث يزيل الريب أدناها من الصدور ، ويسد على الشيطان كل منفذ ؛ لأنه ملازم للإنسان ، لا يتركه ، وهذا معنى قوله ﷺ : "إن الشيطان ليجرى من ابن آدم مجرى الدم في العروق" كناية عن ملازمته له .

وكل من سد طريقا على الشيطان حتى لا يفتن الناس كان عمله هذا لوجه الله ﷻ ، ولا يضره أن يقول الناس فيه أنه طاهر الذيل ذو سمعة طيبة .

ألا ترى إلى قول الله تعالى : ﴿ قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا ﴿٢٧﴾ يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴿٢٨﴾ ﴾

عرف الناس أن أباها لم يكن رجل سوء وأن أمها لم تكن زانية ، وهذا من حسن السيرة التي يسعد بها الإنسان بلا شك ، بخلاف من يقول :

فياليت ما بيني وبينك عامر وبيني وبين العالمين خراب

فإن الله ﷻ لم يأمرنا أن يكون ما بيننا وبين العالمين خرابا ، فقد قال ﷻ :

﴿ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا ﴾

وقال عز من قائل : ﴿ وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾

وقد أمر ربنا بالعفو والصفح عن الناس ، والصبر عليهم ، وبين النبي ﷺ أن الله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه ، وأن المعروف كله صدقة ، وأن على المسلم ألا يحتقر من المعروف شيئا ، وأن يلقى أخاه بوجه طلق ، وأن يفرغ من دلوه في دلو المستسقى ، أي أن القليل من العطاء معروف ، والمعروف كله صدقة .

وهل يثمر المعروف عند الأسوياء من الناس إلا شعورا بالسعادة فيما بينهم ، وإحساس بعضهم بفضل بعض .

إن فهم وجه الله ﷻ على أنه حزن وكآبة بين الناس كفيل بأن يجعل الناس يقتل بعضهم بعضا ، أرأيت لو أن زوجا أرادت أن تشكر زوجها على موقف أو هدية أو كرم أو صلة بأهلها فقال لها : اسمعي ، أنا لم أحسن إليك لسواد عينيك ، أو لأني أحبك ، ولم أصلك بأهلك حبا فيهم ولا فيك ، إنما فعلته لوجه الله ، ألا يكون بذلك صادما جارحا .

وهل معنى قوله ﷺ : "حتى اللقمة تضعها في فم زوجتك صدقة" أن يقول الزوج لزوجته : افتحي فاك حتى أضع فيه الصدقة ، أم أن الغاية منه أن يحتسب الرجل نفقته على زوجته صدقة فيما بينه وبين الله ، ولكنه يعبر عن ذلك بحبه لها ، وعطفه عليها ، ورعايته لها .

إن هذا الدين علم ، وليس من العلم أن يصرح محسن بإحسانه أنه لوجه الله بمعنى أن يصد به النفوس ، وأن يصرف الناس عن شكره ، وعن الابتهاج به .

وقد تجد المرء يفعل الخير في إنسان قائلا : هذا من أجل أن أباك كان صديقا لأبي ، وبري بك إنما هو بري بأبي .

وقد ورد أن ابن عمر رضي الله عنهما قد أعطى رجلا عمامته ، ونزل له عن دابته ، وأعطاه إياها ، فلما سأله صاحبه عن ذلك ، وهمس في أذنه بأنه كان يكفيه أقل من ذلك بكثير ، قال له : إن والد هذا الرجل كان صديقاً لعمر .

فهل فعل ذلك ابن عمر لوجه أبيه وصحبه أم أنه فعله لوجه الله ﷻ

لا شك أنه فعله لوجه الله تعالى الذي وصاه ببر والديه ، وقد بين النبي ﷺ أنه قد بقى من بر الوالدين بعد وفاتهما أن تبر صديقهما ، وأن تصل الرحم التي لا توصل إلا بهما .

يريدون وجهه

في آية الكهف (٢٨) يقول الله تعالى : ﴿ وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴾

متى ذكر الجمع بين الغداة والعشى دل ذلك على الدوام والاستمرار ، كما في قوله تعالى : ﴿ وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴾

وقوله تعالى : ﴿ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴿١٧﴾ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴾

وقوله عز من قائل : ﴿ وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴾

ومن أراد وجه الله لم يكفه الليل والنهار ، ولا طول الأعمار ، وإنما استقل كل عمل مهما عظم في سبيل الوصول إلى رضوانه .

وقد قال الشاعر العذرى كثير في عزة :

أود الثـــواء عنـدها وأظنها إذا ما أطلنا عندها المكث ملت

أي أنه يود أن يمكث عند عزة عمره ، لا يشفي غليله أن يظل عندها ساعة ، أو يوما بليلته ، ولكن الذي يمنع من ذلك خشية أن تمل ؛ فهو يتحمل البعد عنها حتى لا تمل ، ولولا خشية الملل لما فارقها طرفة عين .

وقد قال يعقوب عليه السلام لبنيه حين سألوه أن يسمح لأخيهم يوسف بأن يذهب معهم بكرة النهار ليرتع ويلعب : ﴿ إِنِّي لَيَحْزُنُنِيٓ أَن تَذْهَبُواْ بِهِۦ ﴾

فمجرد الذهاب عن الحبيب مع أمل العود يحزن المحب .

وقد كان رسول الله ﷺ يتخول الصحابة الكرام بالموعظة خشية السآمة عليهم ، لكنه قال : "إن الله لا يمل حتى تملوا" .

أي أن الأمر مع الله ﷻ يختلف ، فالناس مثلا لا يحبون من يسألهم ، والله ﷻ يغضب إن لم يسأله الناس .

الله يغضب إن تركت سؤاله وبنى آدم حين يسأل يغضب

والناس لا يحبون من يلح عليهم ، والله يحب أن يلح عليه عبده في الدعاء على وجهه الصحيح ، إذا كان الدعاء مرتكزا على دعامة من دعائمه .

وقد روى أن الصحابة رضوان الله عليهم كانوا يلحون على الله في الدعاء ، ولا يسمع بعضهم بعضا .

وقل في الناس من يدعوك من أجل أن يعطيك ، والله ﷻ لا يدعوك إلا من أجل أن يعطيك ، ينزل (أي تنزل رحمته) إلى السماء الدنيا في كل ليلة ؛ ليقول :

"هل من سائل فأعطيه"

"هل من مستغفر فاغفر له"

"هل من تائب فأتوب عليه"

ويقول ﷻ : ﴿ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓاْ أَصَٰبِعَهُمْ فِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْاْ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّواْ وَٱسْتَكْبَرُواْ ٱسْتِكْبَارًا ﴾

وما لأحد عنده من نعمة تجزى إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى .

يحدثنا ربنا تعالى في سورة الليل عن النار ، فيقول : ﴿ فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ ﴿١٤﴾ لَا يَصْلَىٰهَا إِلَّا الْأَشْقَى ﴿١٥﴾ الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٦﴾ وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى ﴿١٧﴾ الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰ ﴿١٩﴾ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَىٰ ﴿٢٠﴾ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ ﴾

قال العلماء نزلت في أبي بكر رضي الله عنه حيث كان يشترى العبيد والإماء من حر ماله لوجه الله ﷻ يعتقهم ، فيرفع عنهم عذاب المشركين الذين كانوا يعذبونهم بسبب إسلامهم ، ومنهم بلال وزنيرة رضي الله عنهما .

وقد قال الله تعالى : ﴿ وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى ﴿١٧﴾ الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰ ﴿١٩﴾ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَىٰ ﴾

أي أنه ينفق ماله لوجه الله ، ربه الأعلى ، لا يرد بما ينفق معروفا لأحد ، ولا يكافئ بما ينفق أحدا أنعم عليه من قبل ، وإنما هو مبتدئ ، غايته وجه الله تعالى .

وكأني أقرأ لفظة (الأعلى) لأول مرة في قوله تعالى : ﴿ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَىٰ ﴾ ، والسورة سورة الليل : ﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ﴿١﴾ وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ﴿٢﴾ وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ ﴿٣﴾ إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ ﴾

وقد تفكرت فيها وقلت : سبحان الله الذي تحدى بالقرآن الكريم الإنس والجن ، ﴿ قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾

أي أن الإنسان إذا أنفق ماله ابتغاء وجه ربه الأعلى رأى كل شيء ما عدا وجه ربه الأعلى صغيرا ضئيلا ، فما دمنا نرى ربنا الأعلى فلا شيء يدنو من علوه ، ولا سامى يدنو من سموه ، ومن تطلع إلى العلا نظر إلى ما دونه نظرة عابرة ، لأن هدفه أبعد وغايته أسمى .

وهنا نتوقف عند معلم آخر من معالم الطريق إلى وجه الله ﷻ ، وهو العمل والإنفاق منه لوجه الله ، ألا ترى إلى قوله تعالى : ﴿ ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ ﴾ ، فمن أين كان له مال ؟ ومن أين جاءه المال ، لا شك أنه عمل ، وقد كان يربح من عمله ، ومن ثمرة عمله ونتيجته ينفق ، كما جاء في الحديث الشريف : "على كل مسلم صدقة" ، فلما قيل له ﷺ : "فإن لم يجد ؟" ، قال : "يعمل ويتصدق" .

أي أن العمل سبيل إلى وجه الله ، وهو كذلك من وجه الله ، أي من ابتغاء وجه الله ﷻ ، لأن الله أمر به ، قال الله تعالى : ﴿ وَقُلِ ٱعْمَلُوا۟ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۖ ﴾

وقال عز من قائل : ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ﴾

فالعمل من معالم الوصول إلى وجه الله تعالى ، وكذلك الإنفاق منه النفقة الخالصة لوجه الله تعالى التي لا يتطلع فيها المنفق إلى ثواب من أحد ، ولا يرد بها جميلا كان من أحد عليه .

وتأمل كيف كانت هذه النفقة سبيلا إلى أن يجنب الله ﷻ صاحبها نار لظى يوم الدين ، يوم لا ينفع مال ولا بنون ، إلا من أتى الله بقلب سليم .

ومن سلامة القلب أن تنفق النفقة خالصة لوجه الله

وهذه الآيات الكريمة من سورة الليل من الأدلة عندى على أن الصدقة أفضل العبادات .

ولو كان الإنسان على يقين من ربه وهو مؤمن بكتابه الكريم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، وعلم أن الصدقة الخالصة لوجه الله ﷻ منجاة له من النار لاجتهد فيها ، وأخرجها ، مع أنها عزيزة خالصة لوجه الله الكريم .

وقد قال الله تعالى : ﴿ وَقِيلَ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ مَاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ ۚ قَالُوا۟ خَيْرًا ۗ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۚ وَلَدَارُ ٱلْآخِرَةِ خَيْرٌ ۚ وَلَنِعْمَ دَارُ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣٠﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْزِى ٱللَّهُ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣١﴾ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ ۙ يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمُ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾

فلابد من العمل ، ولابد من الإنفاق الذي يعدل عشرات العناوين من عناوين تزكية النفوس ؛ لأنه به يتزكى المنفق ، أي يرتفع فوق مستوى الحيوانية البغيض إلى مستوى الإنسانية الراقي .

وقد قال الله تعالى : ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ ۖ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٣﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾ وَقُلِ ٱعْمَلُوا۟ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۖ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾

الاحتساب

ومن معالم الطريق إلى وجه الله تعالى الاحتساب ، وهو على وزن افتعال ، مثل اكتئاب ، أي أن يحتسب المسلم ثواب عمله عند الله ﷻ ، وهنا تفصيل مهم وإيضاح لابد منه ، فإن الدين جاء لتزكية النفوس ، وتحقيق مصالح الناس في الدنيا والآخرة ، قال تعالى : ﴿ كَمَآ أَرْسَلْنَا

فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا۟ تَعْلَمُونَ ﴿١٥١﴾ فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لِى وَلَا تَكْفُرُونِ ﴾

وحين أشرقت شمس الإسلام على الدنيا كان في الناس نفوس زكية ، أي مشرقة بالفضائل والمكارم ، وكان فيهم دون ذلك .

كان فيهم الكرم والجود والعفة والمروءة والنجدة ، وإباء الضيم ، كون الناس حلف الفضول بمكة ، وقد شهده النبي ﷺ في شبابه ، وقال : " لو دعيت إلى مثله في الإسلام لأجبت " .

وكان سببه أن رجلا من اليمن جاء بتجارته إلى مكة ، فأخذها منه العاص بن وائل السهمي ، وكان من عادته أكل أموال الناس بالباطل ، فصعد ذلك الرجل جبلا من جبال مكة ، ونادى في الناس : إنى مظلوم يا أهل الحرم ، فأين الحرم ، وأين أثره فيكم ؟

فاجتمع الرؤساء منها وكونوا هذا الحلف ، بعد أن ردوا للرجل ماله من العاص .

ولكن السؤال : هل فعلوا ذلك لوجه الله ؟ والجواب : لا .

إنما فعلوه خشية أن تسوء سمعتهم في البلاد ، وحتى لا يعتدى أنصار هذا الرجل وشيعته على تجارتهم في الطريق إلى اليمن ، ﴿ لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ ۝١ إِۦلَٰفِهِمْ رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيْفِ ۝٢ فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ۝٣ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۢ ﴾

وما أكثر الذين يعملون الأعمال الصالحة النبيلة وهم مسلمون لوجه آخر غير وجه الله تعالى ، بدليل الحديث الصحيح الذي ورد فيه أن العبد الذي عمل عملا من هذه الأعمال يقول فيه ربنا تعالى للملائكة : "خذوه إلى النار" ، يقول من ظنه الناس شهيدا : لقد قاتلت يا رب في سبيلك ، فيقول الله له : كذبت ، إنما كنت تقاتل ليقال شجاع ، وقد قيل .

ويقول لمن أنفق ماله وأطعم طعامه كذلك : كذبت ، فقد كنت تنفق ليقال : كريم ، وقد قيل .

ويقول ذلك لقارئ القرآن : كذبت ، إنما كنت تقرأ ليقال : قارئ .

وهذا يدل على أن العمل إذا لم يكن لوجه الله تعالى فلا ثواب له عند الله ، وهكذا كان حلف الفضول ، ما كان إلا لمصلحة الناس .

وقد ورد أن الرجل الذي ظلمه العاص بن وائل السهمي قد هددهم بحرب أهله وشيعته ، وتعديهم على تجارتهم ، ومن ثم هبوا إلى إنشاء هذا الحلف .

وحين قال ﷺ : "لو دعيت إلى مثله في الإسلام لأجبت" ، أي لو دعيت إلى مثله من حيث الهدف الذي من أجله كان ، لا من حيث إنه رياء وسمعة ، أو خوف على تجارة أن تضيع ، فإن النبي ﷺ صاحب الرسالة ما كان ليعمل عملا ، أو يقبل أن يشارك في عمل وهو لغير وجه الله تعالى القائل : "أنا أغنى الأغنياء عن الشريك" .

وكذلك كانت الأعمال الصالحة لهدف آخر بأن يكرم المرء الضيوف ليقال : كريم ، وقد يكون العمل الصالح لغير نية أصلا ، وهو كذلك ليس لوجه الله ، مع أنه ليس لأي وجه ، كما قالت هند بنت عتبة في بيعة النساء : أو تزنى الحرة يا رسول الله ، أي أن الحرة لا تزنى ، دماء الحرية في عروقها تأبى أن يطأها غير زوج .

نعم هناك نفوس زكية بالفطرة ، ولكن لابد لهذه الفطرة من توجيه ، أي من احتساب .

غاية ما هنالك أنه لا يشق عليها العمل الصالح لأنها بفطرتها تعمله ، بخلاف الذي اعتاد سوء الأعمال ، فإنه يشق عليه أن يتحول عنها

أما رأيت الشاعر الأعشى الذي كان متوجها إلى النبي ﷺ ليعلن إسلامه فقيل له : إنه يحرم الزنا .

فقال : لا حاجة لى في النساء ، فلما قيل له : إنه يحرم الخمر ، قال : أما هذه فلا غنى لى عنها ، فلأرو النفس منها هذا العام ، وآتيه العام القادم ، وعاجلته المنية قبل أن يأتى عامه القادم فمات على شركه .

فلو أن إنسانا لا يزني بطبعه ، ولا يشرب الخمر بطبعه ، ولا يفعل الموبقات كذلك ، كما جاء في صهيب : "لو لم يخف الله لم يعصه" ، فحين يعرض عليه الدين يجده موافقا طباعه ومألوف عاداته ، فما الذي يشق عليه في اتباعه والدخول فيه ، بخلاف ذلك الذي يقيده الإسلام ويحول طباعه ومألوف عاداته إلى أعمال صالحة لم يتعودها ، فهي شاقة عليه .

كالذي يتحدث الإنجليزية لأنه ولد في بيئتها ، يكون بخلاف الذي تعلمها وهي ليست لغة أهله وبيئته ، فمهما وصل فيها من درجة الإجادة فلن يصل إلى مستوى الأول الذي رضعها وأحس همسها ، وعرف أسرارها دون بذل جهد .

فالنفس الزكية قبل الإسلام يسرها أن تدخل في هذا الدين ، فتحول النية إن كانت النية لغير وجه الله ﷻ ، أو لم تكن هناك نية أصلا .

وغير الزكية تتعلم كيف تكون زكية ، وإن كان هذا الأمر شاقا عليها إلا أنها تتحمل المشقة من أجل ثواب الله ﷻ وما أعده لعباده الصالحين مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر : ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾

وقد أقر الإسلام الشمائل الطيبة والصفات الصالحة ، كالكرم والجود ، والمروءة والبعد عن الفواحش ، وحارب ما يقابلها من بخل ودناءة ، واقتراف للفواحش ، ودعا الجميع إلى احتساب ذلك كله عند الله ﷻ

قال عليه الصلاة والسلام : "من صام رمضان إيمانا واحتسابا غفر له ما تقدم من ذنبه" .

وقد روى البخاري في صحيحه قول النبي ﷺ : "حتى اللقمة تضعها في فم زوجتك صدقة" .

والعلماء في ضوء هذا الحديث الشريف وغيره يقولون : "إذا احتسب المسلم نفقته على عياله كانت له صدقة" .

وأول حديث في صحيح البخاري عن عمر رضي الله عنه قول رسول الله ﷺ : "إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى ، فمن كانت

هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة يتزوجها فهجرته إلى ما هاجر إليه"

وهذا الحديث دليل على أن العمل المجرد من النية غير صحيح في العبادات والمعاملات ، فالنية من أركان الوضوء ، والنية من أركان الصلاة والصوم والزكاة والحج لمن استطاع إليه سبيلا .

ولا يشترط أن يقول العبد بلسانه "نويت كذا" ، وإنما النية محلها القلب ، والقلب إذا انشغل بالنية كان ثمرة انشغاله أمرين عظيمين :

الأول : إتقان ما يعمل

والثاني : احتساب ثوابه عند الله ﷻ

نعم ، إذا ملأت النية القلب ، فانشغل بما يعمل أدى ذلك إلى إتقان عظيم ، لا يأتى به أن يراقبه رقيب من الناس ، ولا غيره ؛ لأن هناك فرقا بين أن يكون القلب مشغولا بوجه الله ﷻ وبين أن يكون مشغولا بغيره ، فما كان لله دام واتصل ، وما كان لغير الله قل وانقطع .

وإذا كان القلب مشغولا بالعمل على هذا الوجه حارب بذلك الانشغال النسيان واللبس .

وكم نصح العلماء الذين يشكون (السرحان) في الصلاة بأن يفكروا فيما يقولون ؛ فإن التفكر في معنى الآيات التي يتلوها المصلي علاج لهذا السرحان ، وأكرم بها من نصيحة ؛ لأنها تفسير لتلك النية التي هي انشغال بالعمل ، وكل إنسان شغل قلبه بشيء أتقنه ، وأحبه ، واستمر عليه ؛ لأن الله ﷻ ما جعل لرجل من قلبين في جوفه ، قال تعالى : ﴿ مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِۦ ﴾

ومن شغل قلبه بعمل يعمله لوجه الله ﷻ أمده الله تعالى بنور من عنده ، ومدد من لدنه .

ألا ترى إلى قول ربنا في الحديث القدسي : "وأنا معه إذا ذكرني" ، وقوله : "من ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي ومن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير من ملئه" .

وذكر الله ﷻ ليس باللسان وحده ، وليس بمجرد النطق باسم من أسمائه الحسنى : "الله – الرحمن – الرحيم – الملك – القدوس ....." .

وإنما ذكره تعالى يعنى ذكر أحكام شريعته (أحلال هذا أم حرام)

وذكره تعالى يعني ذكر وعده ووعيده ، فذكر الوعد يقتضى المزيد من الأعمال الصالحة التي جاء وعده تعالى عليها .

وذكر وعيده يقتضى البعد عن المنكرات التي جاء وعيده عليها ،

﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴾

أي ألا بذكر وعد الله تطمئن القلوب ؛ وذلك لأن وعد الله حق ، "لَا تُخْلِفُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ" ، وقال ﷻ : ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾

أي إذا ذكر وعيد الله وجلت قلوبهم ، أي : اضطربت ؛ وذلك لأن وعيد الله صدق كذلك .

ومن كان من طلاب العلم مشغولا قلبه بأعلى الدرجات ، والحصول على المركز الأول كان همه الاستذكار ، وتحصيل دروسه ليل نهار ، بخلاف الذي لا تعنيه النتائج ، فهو لا يفكر فيها ولا يفكر في سببها ، فهو يستذكر ساعة ويلعب ساعات ، وقد تجد أمة من الناس يسعدون سعادة غامرة لأنهم حققوا نتائج غير مرجوة ، وما كانوا ينتظرونها ، ولا خططوا من أجلها ، يضربون كفا بكف ، ويقولون : والله عجيبة .. والله أمر عجيب ، حصلنا على كذا وكذا ، وهذا من فضل الله تعالى الذي يقول للشيء كن فيكون .

وهذا ليس منهجا صحيحا ، إنما هو من باب خبط العشواء ، ومن باب رمية بلا رام ، ومن باب : قد تسبق العرجاء .

أما المنهج الصحيح والرأي الرشيد أن يخطط المؤمن حياته ، وأن يعمل المقدمات التي تؤدى إلى النتائج العظيمة ، وأن يكون فرحه بها وسعادته بها أعظم من الذي لم يخطط لها ، فتلك سعادة وهمية لا تدوم .

فإن خطط المسلم وأخذ بالسبب وكانت النتيجة على خلاف ما خطط حمد الله ﷻ ورضي ؛ لأنه لا يدرى أين يكون الخير ، وهو راض لأنه لم يدخر جهدا ، ولا وقتا ، ولا مالا ، ومع ذلك أيضا يتهم نفسه لا ربه ؛ لأنه يسبح الله ﷻ في كل حين ، واتهام النفس سبيل إلى تزكيتها ، ونسبة التقصير إليها من باب الحق والإنصاف لا من باب المبالغة ، فالله ﷻ لا يظلم الناس مثقال ذرة .

إن السعادة الحقيقية تكون لمن جد واجتهد وزرع ، ومن ثم حصد نتيجة زرعه وشقائه ، ولم يندم على تفريط كان منه ، وهو مع ذلك كله يؤمن إيمانا راسخا بأن الله تعالى ولى النعم ، وأن السبب هيهات أن يبلغ به ما بلغ لولا توفيق الله ﷻ .

ألا ترى إلى قوله تعالى : ﴿ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ ﴾

فأثبت الرمى من حيث إنه قد كان بالفعل ، لكنه نفاه باعتبار أنه ما كان ليصل إلى الهدف ويصيب لولا توفيق الله ﷻ .

وقد قال أهل الجنة كما جاء في آية الأعراف : ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ ﴾

والله ﷻ يقول : ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ﴾

مع أن هذه النعمة قد تكون حبة قمح ما كان الإنسان ليحصل عليها دون علاج أرض ، وبذر بذور ، ومراعاة بسقى ، وعلاج للآفات ، وغير ذلك من ألوان التعب والشقاء ، وهي معروفة يعرفها الفلاحون وأبناؤهم ، ومع ذلك كله إذا أمسك بها ، وأدرك أنها نعمة ، وهي نعمة بغير شك قال : هي من عند الله .

فمع وجود العلم ، والأخذ بالسبب لما رأى سليمان عليه السلام عرش الملكة مستقرا عنده قال : ﴿ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى ﴾

فلابد من انشغال القلب بالعمل الذي يكون لوجه الله تعالى .

فإذا انشغل القلب بالعمل أتقنه ، وتذكر ما كان منه ، وما لم يكن فأتم الذي لم يكن حتى يضيفه إلى ما كان ليصبح جميعه قد كان ، بخلاف الذي يعمل العمل وهو مشغول بغيره ، فيختلط عليه الأمر ، فإن نجح كان نجاحه خبط عشواء ، وهذا لا يدوم طويلا لأنه على غير منهج .

من أراد وجه الله تحمل عبوس الوجوه

شيء ما يسيطر على قلبك إذا كنت تتأمل في ملكوت الله ﷻ ، أو كنت تقف عند آية من آياته ذكر تعالى لنا فيها صفة من صفاته ، أو ملمحا من ملامح قدرته ، أو نعمة من نعمه أسبغها علينا .

هذا الشيء هو إحساسك بالقرب من القريب المجيب الذي يسمعك ، حتى دون أن تنطق بكلمة شفتاك لأنه يعلم ما في صدرك .

أي إحساس يسيطر عليك ، وأنت ترى النحل قد أوحى ربك إليه أن اتخذي من الجبال بيوتا ومن الشجر ومما يعرشون ، ثم كلى من كل الثمرات فاسلكى سبل ربك ذللا .

قال تعالى : ﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِى مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ

فَٱسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا ۚ يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾

فهل من التفكر أن تنظر في "ربك" في صدر الآية الأولى خطابا للنبي ﷺ ، ومن آمن معه ، وأن تنظر في "ربك" بكسر الكاف خطابا للنحل لتقول : إن الله تعالى ربنا ، ورب النحل ورب كل شيء .

لا شك أن هذا من التفكر ، وقد كان رسول الله ﷺ إذا رأى الهلال خاطبه بقوله : "أهلك الله علينا بالخير ، ربي وربك الله" .

وكل شيء كان الله تعالى ربه لا يصلح أن يكون معبودا ،

﴿ وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا ۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّى فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْءَافِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى ۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِى رَبِّى لَأَكُونَنَّ مِنَ

ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّى هَٰذَآ أَكْبَرُ ۖ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا ۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ .

وهل من التفكر أن نعلم أن من الوحى ما هو بمثابة التسخير ، أو باللغة المعاصرة "البرمجة" ، أي أنه الإلهام الذي لا يكون بإرسال رسول ، وإلقاء كلمات ، هكذا خلق الله النحل ، وقال له ابتداء : كن نحلا ، فكان نحلا ، ثم قال له : اتخذ من الجبال بيوتا ... إلى آخره .

لا شك أنه من التفكر

وهل من التفكر أن تتفكر في هذا الإلهام الذي هو إلهام نزيه عن اللبس ، والخلط ، وأن كل شيء مما خلق الله ﷻ في فلك ، لا يبغى بعض المخلوقات على بعض ، فماذا لو قال الله للنحل إلهاما : اسكنى مع الناس في بيوتهم ، ونامى معهم على أسرتهم ، وادخلى حماماتهم ، ومطابخهم ، وسياراتهم .

وقد حدث مثل هذا أخذا منه ﷻ للظالمين ، فكان رجزا عظيما ، وويلا كبيرا : ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿١٣٣﴾ وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ ٱلرِّجْزُ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ ۖ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٣٤﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلرِّجْزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿١٣٥﴾ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴾

ماذا لو أرسل الله علينا النحل بظلمنا كما أرسل الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم على من ظلم قبلنا ، وما كانت حياتهم لتستقيم مع هذه الجيوش التي تبدو مضرب المثل في الضعف ، لكنها مؤرقة .

وقد سألوا كليم الله موسى عليه السلام أن يدعو الله لهم كى يكشف عنهم هذا العذاب ، ووعدوه بأن يؤمنوا ، وأن يرسلوا معه بنى إسرائيل ، فلما كشف الله عنهم الرجز إلى حين نكثوا ، ومن نكث فإنما ينكث على نفسه ، ثم أغرقهم الله تعالى في اليم بما ظلموا .

فمن رحمة الله تعالى أن أوحى إلى النحل أن تتخذ من الجبال بيوتا ، ومن الشجر ، ومما يعرشون .

ولعلك وأنت تفكر تذكر أن نحلة دخلت بيتك ، فصرت أنت برغم ادعائك القوة وجميع أفراد عائلتك في رعب وفزع ، كل يجرى بشيء في يده ليقضى عليها ، أو يخرجها آمنة حتى يستطيع أن يعيش حياته في بعد عن لسعتها ، فما بالك لو دخلت جنود منها ، فأظلت السقف ، وملأت الجدران ، أية طاقة عندنا لمقاومة هذه الجيوش الطيارة الفتاكة ، كيف ننام؟ وكيف نأكل ؟ وكيف نشرب ؟ ، وكيف نعيش حياتنا مع تلك الصحبة اللاسعة المؤرقة .

قَلَّ من يتفكر في هذا ، بسبب توهمه أن ذلك لن يكون ، وكأن من حقه أن يعيش آمنا في بعد تام عن أي منغص من منغصات العيش .

وأليس من التفكر أن تشكر الله تعالى على نعمة هذا الشراب الذي فيه شفاء للناس ، وهو خارج من بطون صغيرة ضئيلة في جمال وإتقان وإعجاز .

ولعلك تتوقف عند قول الله تعالى : ﴿ ثُمَّ كُلِى مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا ۚ يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ ﴾

حيث إن من أكل شيئا عليه أن يعطى ، كما أن النحل أكلت من كل الثمرات فأخرجت من بطونها شرابا مختلفا ألوانه فيه شفاء للناس ، فهل أكل أولادنا وأبدعوا ونجحوا ، وتفوقوا ، أم أن أبناءنا أكلوا لذيذ الطعام والشراب ، ولبسوا أرقى صنوف الملبوسات شرقية وغربية ، وحصلوا على ما لم يحصل عليه أجيالنا من متع الحياة الدنيا وزينتها ، ومع ذلك تخلفوا ، وتقهقروا ، وأصبح كثير منهم لا يتقدم إلا ببذل النفس والنفيس والدروس الخاصة ، وهو مرفه في حياته ، ويذهب إلى مدرسته بسيارة فارهة ، ويعيش أنعم حياة ، وقد كانت الأجيال من قبلهم يسعى المرء إلى مدرسته وجامعته على قدميه ، ويجتهد في تحصيل علمه كل اجتهاد من أجل أن يفهم .

وكان بعض الطلاب يقوم بشرح بعض الدروس إلى بعض ، يقوم مقام الأستاذ ، وكان الكتاب متعة لكل قارئ خصوصا طالب العلم ، الذي كان يقرأ ، ويناقش أساتذته ، ومن ثم كان المدرسون يهابون التلاميذ ، ويستعدون لهم ، وكان بعضهم يعتذر للطالب الذي يسأله سؤالا ، ولم يكن حاضرا بجوابه حتى يستشير مراجعه ، ويطلع ويفيده على علم .

واليوم أقول : إن أي إنسان يصلح أن يكون اليوم مدرسا ، لأن الطلاب يمنحون لكل متحدث آذانهم ، فينفخ فيها بما يشاء ، وهم يريدون ما يسمى بالسين والجيم ، أو ما الذي يأتى في الامتحان فقط ، لا يريدون محاضرة في العلم ، يعتبرون ذلك صداعا في الرءوس ، وهم يريدون إنجازا سريعا ، يريدون نجاحا وتفوقا عظيما دون بذل جهد كبير ، تماما كالذين يريدون ثراء عظيما في طرفة عين دون أن يبذلوا جهدا ويؤسسوا مشروعات صغيرة تكبر مع الأيام ، وإنما يريدون ثراء عظيما على نظام (على بابا) ، فإن كان ذلك عن طريق المخدرات أو غيرها فلا بأس بذلك عند بعضهم .

ويجمع ذلك كله هذا العنوان (فقدان الصبر) ، وإذا فقدنا الصبر فقدنا معه كل شيء ؛ لأن الصبر لا يكون فقط على البلاء والمصائب ، وإنما الصبر كما يكون في البلايا والمحن والمصائب يكون كذلك في النعم والمنح ، ويكون أعظم ما يكون في الأعمال .

هل تذكر الخياط القديم الذي كان يخيط العباءة بيديه ، ويصبر على ذلك مدة طويلة من الزمن ، ثم يخرجها من بعد ذلك تحفة فنية رائعة ،

واليوم لا صبر لأحد أن يفعل ذلك ، وإن أشرت به على أحد من الناس ضحك ساخراً منك ، وقال لك : رحم الله أيام زمان ، وهل تظن أن أحداً من الناس يقدر على ذلك ، أو يقوى عليه ، ثم تراه بعد برهة من الزمن يقول لك : وهل تظن أن أحدا سيرتدى تلك العباءة اليوم ؟

أي أنه يلقى بالتهمة على الزبائن ، لا على نفسه ، وأنه غير مسئول عن ضجره بالجيد من الصناعات ، ولا بالمتقن من الأعمال .

بل إن بعض الصناع يصنع الرديء أو الأقل جودة ، وفي وسعه أن يصنع الممتاز الجيد ، لكنه يقول لك : إنه إذا عرض الجيد على الزبون فلن يرضى به لارتفاع سعره ، فهو يقدم له الرديء بثمن قليل ، أقول لمثله : فهلا عرضت عليه هذا وذاك؟ واترك له حرية الاختيار ، أي قل له : إن الجيد من هذا بكذا ، والرديء بكذا .

وقد سأل النبي ﷺ عن تمر خيبر : "هل كله هكذا جيد؟" ، فقيل له : لا ، إنما يشترون الصاع من الجيد بصاعين من الرديء ، فنهاهم ﷺ لأنه من الربا المحرم ؛ لاتحاد الجنس ، وأرشدهم إلى أن يبيعوا الرديء بالدراهم ، ثم يشتروا بها الجيد .

فهناك الجيد والرديء في كل شيء ، وعلينا أن نبين سعر هذا وسعر ذاك ، وعلى المشترى أن يختار الذي يناسب ظروفه .

لكنى وجدت رجلا يمدح الرديء لمشتر ، ويقول له : إن هذا الذي أعجبك لا خير فيه ، إنما مثله مثل القائل : "الصيت ولا الغنى" وذلك ليغريه حتى يشترى الرديء ، لأنه عنده كاسد ، ولأن ربحه فيه كثير .

ولا شك أن من التفكر التفكر في نعم الله ﷻ التي لا تحصى ، قال تعالى : ﴿ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ﴾ ، وقد وردت هذه الآية في سورة النحل كما وردت في سورة إبراهيم .

وكذلك يهدى التفكر في كتاب الله ﷻ إلى المزيد من الوقفات التي يتوقف عندها من يتفكر فإذا به يزداد قربا من القريب المجيب .

وهو لا شك يقف عند هذا التعبير القرآنى المعجز ﴿ فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ ﴾ ، ﴿ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴾

وليس كل قريب مجيبا ، فما أكثر الذين تجدهم منك أقرباء ، لكنهم لا يجيبونك ، كما قال الشاعر :

على أن قرب الدار ليس بنافع إذا كان من تهواه ليس بذي ود

وكما قال آخر :

ما أكثر الإخوان حين تعدهم لكنهم في النائبات قليل

لكن ربنا تعالى قريب مجيب ، واقتران الإجابة بالقرب في آيتى البقرة وهود فيه توكيد عظيم على أن قرب الله تعالى ليس كأي قرب ، إذ من القرب قرب يكون البعد خيرا منه ؛ ولذا عد العلماء اليتيم الحكمى أشد بؤسا من اليتيم الحقيقى ؛ لأنه عند الناس ممتع بخيرات أبيه ، وهو في الحقيقة محروم ، مع أن أباه موجود ، أما اليتيم الحقيقى فمعروف أن أباه قد فارق الحياة ، ولولا الموت لأعطاه .

كما قال النبي ﷺ في الحديث الذي رواه البخاري : "ليس المسكين الذي ترده اللقمة واللقمتان ، والتمرة والتمرتان ، وإنما المسكين الذي ليس عنده ما يكفيه ، ولا يفطن إليه أحد من الناس فيعطيه" .

من أجل ذلك كان الله ﷻ وجهه أحب الوجوه إلى العاقل المؤمن ، وكان في سبيله يهون عبوس كل وجه ، وقد هون مما لقيه ﷺ أنه كان مطمئنا إلى رضا ربه عنه ؛ فقد قال عليه الصلاة والسلام : "إن لم يكن بك غضب على فلا أبالى" .

الفصل الثاني

أثر العمل لوجه الله تعالى

إن أثر العمل لوجه الله ﷻ يتجلى عظيما إذا كان خالصا لوجهه تعالى ؛ لأنه لن يعمل لوجه الله إلا من كان مؤمنا خالصا ، صادقا في إيمانه ، على يقين من ربه ، فكما رأينا هناك من يعمل رياء وسمعة ، وخوف الرقيب من الناس ، وهناك من يعمل ابتغاء وجه الله ، أي ابتغاء مرضاته ، والحصول على عظيم ثوابه ، وشتان ما بين راج وجه الناس ، وبين راج وجه الله ﷻ ، فالذي يريد وجه الناس لا يعمل إلا إذا رأى الناس ، وقد يتعطل فلا يعمل ؛ لأنه لا يرى الناس أو يراهم ولكنهم لا يثنون عليه ، ولا يقولون فيه شعرا من مديح يطربه ، بأنه محسن بل وإمام المحسنين ، الذين يخافون الله رب العالمين ، ويتقيه ، ويعمل لوجهه ، إنه الذي بنى هذا المسجد ، وأقام هذه المدرسة .

بخلاف الذي يعمل لوجه الله تعالى الذي لا يغيب ، فالله على كل شيء شهيد

ومن كان عمله لوجه الله تعالى أتقنه ، لعلمه أن الله ﷻ لا يقبل من العمل إلا المتقن ، وأحسنه ، فالله ﷻ لا يضيع أجر المحسنين .

فالعمل الدائم أحب العمل إلى الله ﷻ

روى البخاري في صحيحه أن رسول الله ﷺ سئل عن أحب العمل إلى الله ، فقال : "أدومه وإن قل" .

أي أن العمل الدائم أحب العمل إلى الله ﷻ ، وإن كان قليلا ، وقد تكون قلته بحسب ظروف العاملين المختلفة ، ومن تلك الظروف الطاقة ، والله تعالى لا يكلف نفسا إلا وسعها .

ومن مفاسد البعد عن هذا النور الواضح أن الناس قد حولوا الدين إلى حالة ، وكان عليهم أن يجعلوه حياة ، والحالة قد تكون دينية ، وقد تكون اجتماعية وقد تكون اقتصادية .

وأعني بالحالة الدينية تلك المناسبات المعروفة مثل رمضان ، حيث ترى الموائد التي يطلق عليها الناس موائد الرحمن ، وكان الأولى أن يسموها موائد الصائمين ، أو موائد عباد الرحمن ؛ لأن مائدة الرحمن ليست موسمية خاصة برمضان ، وتنفض بعده ، وإنما هي دائمة ما دامت الحياة ، ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ﴾ .

لكن لا بأس ، حيث يمكن التقدير على حذف مضاف ، أي أن المراد بموائد الرحمن : موائد عباد الرحمن ، فحذف المضاف ، وأقيم المضاف إليه مقامه.

إنما المشكلة في فض تلك الموائد بعد رمضان ، كما يقل من المساجد الراكع والساجد ، وتقل تلاوة القرآن بعد رمضان .

ومن الناس من يقطعها تماما ، أسمع أن هناك من لا يصلي إلا في رمضان ، ولا يفتح المصحف إلا فيه ، فإذا انقضى رمضان فلا صلاة ولا تلاوة ، وليس هذا من الإسلام .

كما أعرف أن هناك بنات ونساء يرتدين غطاء الرأس "الحجاب" في رمضان ، فإذا انقضى رمضان عدن حاسرات الرأس ، وعدن إلى التبرج الذي كن عليه ، والذي عرفن به ، أي (عادت ريمة إلى عادتها القديمة) .

والأصل أن المسلم يقيم الصلاة ما دام حيا ، قال تعالى : ﴿ وَأَوْصَـٰنِى بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴾

وفي رمضان يصلى القيام (التراويح) بعد العشاء ، فهي خاصة برمضان ، كما اختص بتواتر الصيام وبصدقة الفطر .

والأصل أن يقرأ القرآن الكريم دائما ، ويزيد من تلاوته في رمضان ، فقد ثبت أن رسول الله ﷺ ما كان يمنعه شيء من تلاوة القرآن الكريم إلا الجنابة .

وكذلك كل مسلم حريص على أن يكون في طاعة ربه ﷻ ، يستمر ويدوم على تلك الطاعة ، فإذا جاء الموسم زاد من طاعته ؛ فقد ثبت عن سيدنا رسول الله ﷺ أنه كان أكرم الناس وأجود الناس ، وكان أكرم ما يكون في رمضان .

أي أن رسول الله ﷺ كان كريما في كل يوم ، وكل ساعة ، وكان أكرم ما يكون في رمضان ، أي أنه ﷺ كان كريما في شوال وذي القعدة وذي الحجة وسائر الشهور ، بدرجة مائة في المائة ، لكنه كان في رمضان كريما بدرجة مائتين في المائة ، فهو أكرم من نفسه ﷺ في رمضان ، وكذلك الحال بالنسبة إلى سائر العبادات والمعاملات .

ومن تلك المناسبات الدينية ليلة النصف من شعبان ، وشهر رجب ، ومولد الرسول الكريم ﷺ .

تلك المناسبات التي تتأجج فيها العواطف والمشاعر ، وترتقى في سماء الصفاء إلى أعلى درجة ، وبعدها يكون هبوط عظيم ، ونسيان لما كان

والشاهد أن العمل إذا كان لوجه الله ﷻ فإنه يكون على منهجه لا على منهج الناس ، ولا على هواهم ، وما يشعرون به في مناسبة معينة ، وقد قال الله تعالى : ﴿ وَأَوْصَـٰنِى بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴾

وقد ذكرت حديث البخاري الذي جاء فيه جواب النبي ﷺ عن سؤال أي العمل أحب إلى الله ، فقال : "أدومه وإن قل" .

ومن المناسبات الاجتماعية أعياد الميلاد ، والزواج ونجاح الأولاد وغيرها ، حيث تتجلى مشاعر دينية معينة ، ويأتى الناس بقراء ، ومداحين ، ويطبخون ، ويطعمون الطعام ، ويتصدقون ويدعون ، ويتبركون ، وبانتهاء المناسبة تنتهي الحالة ، والدين ليس حالة ، وإنما هو حياة .

ومن المناسبات الاقتصادية أن يربح إنسان في تجارة له ، أو أن يعقد شركة مع آخر ، وعند العقد تقرأ الفاتحة ، وبعد أن يبرم العقد لا تقرأ الفاتحة ولا الناس ، وبعد الربح الذي تصدق عنده ينسى الناس .

فجميع المناسبات الدينية وغيرها من باب جعل الدين حالة ، والدين حياة لا حالة .

ولن يكون حياة بمعنى أنه في الحل والترحال والربح والخسارة ، ورمضان وغيره من سائر الشهور منهج المسلم في جميع تصرفاته وسلوكياته مع نفسه ، ومع الناس ، ومع الله من قبل ومن بعد .

أي أن المسلم في جميع أحواله يتحرى وجه الله ﷻ ، ويعمل مجتهدا لإرضاء ربه جل وعلا .

والدليل على ذلك قوله تعالى في آيات سورة آل عمران : ﴿ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ١٣٣ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾

فالذين ينفقون في السراء والضراء الدين عندهم حياة ، والذين ينفقون في السراء وعند الربح فقط ، الدين عندهم حالة .

ولا أقول إن هذه الحالة معناها أن أصحابها لا يعملون لوجه الله ، وإنما أقول إنهم يعملون لوجه الحالة ، وفي ذلك شبهة عمل لوجه الناس ؛ لأن صاحب الحالة في الغالب ما يقول : لابد أن أفعل كذا يوم زواج ولدى حتى لا يقول الناس : إنني لست فرحا بزواجه ، أو إنني أحب أخاه أشد من حبي له ، فقد عملت في فرح أخيه كذا وكذا ، وذبحت كذا وكذا ، خصوصا إذا كان هذا من امرأة وكان هذا من امرأة أخرى ، وهكذا .

أما الذين يعملون لوجه الله تعالى فهم لا يتكلفون ، صحيح قد يفعلون في مناسبة فعلا هم قادرون عليه ، ويفعلون في مناسبة أخرى دون ذلك ، لأنهم كانوا في الأولى قادرين ، وكانوا في الثانية عاجزين ، والله ﷻ عليهم رقيب ، وقد مدح الله تعالى رسله بقوله : ﴿ ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ ۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ﴾

والذين يخشون الله تعالى ولا يخشون أحدا إلا الله إنما يعملون لوجه الله على ما يرضيه ، لا على ما يرضي الناس ، وإن كان إرضاء الناس ليس سوءا ، ولا شرا ، ولا غير مقصود شرعا .

ألا ترى إلى حديث البخاري الذي جاء فيه أن الأنصار حين سألوا رسول الله ﷺ نخلا لهم قبل أن يفتح الله عليه ، وذلك بأمره ﷺ ، حين أمر المهاجرين أن يردوا على الأنصار نخلهم لما فتح الله عليهم ، وكان رسول الله ﷺ قد أعطى هذا النخل أم أيمن رضي الله عنها فأبت ، فقال لها ﷺ في لطف : رديه يا أم أيمن ولك مثله .

قالت : والذي بعثك بالحق لن يأخذوه

فابتسم ﷺ وقال : رديه يا أم أيمن ولك مثلاه

فقالت : أبدا

قال : رديه ولك ثلاثة أمثاله

فقالت : أبدا

حتى وصل إلى عشرة أمثاله ، فرضيت وردته

وذلك لأنها كانت عنده ﷺ في منزلة أمه ، كان يقول لها حين ماتت أمه السيدة آمنة بنت وهب : "أنت أمي بعد أمي" .

ولا شك أن إرضاءه ﷺ أم أيمن من باب إرضائه ربه ﷻ

وكثير من النصوص الشرعية الشريفة يفيد هذا المعنى ، ألا ترى إلى قول الله ﷻ : ﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴾

واللغة العربية تعرف الفرق بين : اشكر فلانا ، واشكر لفلان .

فمع تحقق معنى الشكر فيهما إلا أنه في "اشكر لفلان" يدل على محاولة الوصول إلى منتهاه ، أي ابذل قصارى جهدك في شكره .

وقد جاء على نسق واحد مع الله ﷻ ومع الوالدين ، أي ابذل قصارى جهدك في شكرك لله ﷻ ، وابذل قصارى جهدك في شكرك لوالديك ، وهذا بأمر الله ﷻ ، أي كما تشكر ربك على ما أنعم به عليك من نعم اشكر كذلك والديك اللذين كانا السبب في وجودك ، وكانا سببا في إسعادك ، فقد بذلا في سبيل تربيتك كل جهد ، وأعطياك كل ما في وسعهما من أجل تنمية بدنك ، وتنمية وجدانك ، ولذا قال ﷻ : ﴿ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴾

فمن شكر لوالديه وهو يبتغي وجه الله ﷻ بذل في ذلك كل جهد ، وأمر الله تعالى نصب عينيه ، أن أن الله تعالى هو الذي قال له : ابذل في شكرهما كل جهد ، كما قال له : ابذل كل جهد في شكرك إيأي ، أنا ربك الذي خلقتك ، وهديتك وأطعمتك وسقيتك ، وأنا الذي لا غنى لك عنى ، وأنا غنى عنك وعن والديك وعن العالمين .

والذي لا يضع أمر الله نصب عينيه في ذلك وفي غيره يظن الناس أنه يعبد والديه من دون الله ، والذي يكرم زوجته ويحسن عشرتها يقال فيه إنه يعبدها من دون الله .

والذي يهتم بلقمة عيشه ، ورعاية أمواله يقال فيه كذلك إنه عبد الدرهم والدينار .

ففرق كبير بين أن يكون البار بوالديه بارا بهما لأن الله تعالى أمره بذلك ، وبين أن يكون بارا بهما على غير مراعاة هذا الأمر ، وقس على ذلك كل اهتمام بشيء .

ومن يتأمل تلك القضية وغيرها من القضايا يستطيع أن يكون على بينة من أمره ، وسوف يدرك في نهاية ذلك أن هذا الدين هو دين الحياة ، ودين الوفاء بالحقوق والعقود والعهود لكل ذي حق ، فإن لله ﷻ حقا وللنفس حقا ، وللزوج حقا ، وللضيف حقا ، والمسلم مأمور بأن يعطى كل ذي حق حقه كما جاء في صحيح البخاري .

فإذا أعطى كل ذي حق حقه كان عاملا لوجه الله تعالى .

وثمرة العمل لوجه الله تعالى تتجلى في إجلاء تلك الحقيقة ، وأنت إذا أعطيت كل ذي حق حقه أسفر ذلك عن نظرة وجمال وحسن في كل ميدان ومجال ؛ لأن الإبداع سوف يتجلى في ذلك على أروع ما يكون لأنه بمثابة الإحسان ، والإحسان مطلوب في كل شيء حتى في الذبحة ، أي في ذبح الماشية ، "وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبحة" .

وأنت إذا نظرت إلى إحسان إنسان لوجه الناس وجدته يختلف عن إحسانه لوجه الله ﷻ .

فقد ترى الرجل الذي يحسن لوجه الناس يراعى ذوقهم ، أو يرى بأعينهم ، فقد يرى أن الناس يرون الحسن من هذه الزاوية وهو في الحقيقة ليس حسنا ، بخلاف الذي يحسن لوجه الله ﷻ ، فإنه يرى الحسن حسنا بعين الشرع ، وعين الشرع لا تختلف عن عين الإنسان إذا كان سويا ، وكان نور البصيرة مصدرا لنور البصر الذي في عيني رأسه ، أي أنه لابد أن يكون حسنا .

بخلاف العين التي ترى مصدر نورها الشيطان كما قال الله تعالى :

﴿ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا ﴾

وكم من إنسان يرى القبيح حسنا بسبب أن الشيطان زين له ذلك ، وسيظل في عينه حسنا ما دام الشيطان يملى له ويزين له .

ولن يراه سوءا إلا إذا تاب الله عليه فتاب ، فإذا به يرى القبح قبحاً

ألا ترى إلى مجلس الصحابة مع رسول الله ﷺ بعد صلاة الفجر ، حيث كانوا يتذكرون ما كانوا عليه في الجاهلية ويضحكون ، ومن تلك المجالس مجلس ذكر فيه أحدهم أنه اتخذ شاة من شياهه إلها له . فجاء الذئب ، وأكل تلك الشاة ، فاتخذ شاة غيرها لتكون إلها له .

فهل كان ذلك الرجل يرى اتخاذ شاة إلها له من القبح ، وحتى حين عدا عليها الذئب فأكلها ألم يرها قبحا وسوءا ، إذ كيف يضعف الإله عن الدفاع عن نفسه إذا عدا عليه ذئب .

كما قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴾

والشاة وغيرها أضعف من أن تخلق ذبابة ، وإذا سلبتها الذبابة شيئا من طعامها لا تستطيع أن تستنقذه منها ، فقد ضعف الطالب

والمطلوب ، ولذا قال الله تعالى في صدر هذه الآية من سورة الحج :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ ﴾

لما له من أهمية ، ولما فيه من درس عظيم ، فلما هدى الله ﷻ ذلك الرجل ضحك ، أضحكه ما كان عليه من سلب عقل ، وضعف شعور ، وفساد وجدان .

ولا شك أن مثل هذا كثير ، فمن ذا الذي يرى الحرام سوءا وهو يأكله ، وقد يزينه رفيق سوء من مدع إبداعا ، ومن صاحب لا يهمه إلا أن يريح صاحبه لأنه على شاكلته ، ومن حائك يرى المرأة الغافلة الثياب التي لا تستر على أنها أحدث صيحة في عالم الأزياء ، وأنها مثال للذوق والجمال ، وتظهر ما فيها من مفاتن ، وانظر إلى قوله (الذي وهبها الله إياه) ، فهل وهب الله المرأة جمالا تبديه للأجنبي والزوج على سواء ، أم وهبها الله ﷻ جمالا لتسعد به زوجها ، وتقر به عينا ، وتتفكر فيه كيف ينزوى ذات يوم ، ويأتى من بعده خريف ، ثم يكون من بعد ترابا يجمعه الله من جديد

ليحاسبها على ما كان منها : ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ

(٧) وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴾

لا شك أن المؤمن الذي يبتغى وجه الله لا يرى الحرام حلوا ، لأنه يتصور قول الله تعالى مثلا : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا ۖ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴾

أي أنه يرى الصنوف الطيبة الشهية اللذيذة جمرا من النار حقا ، لا تخيلا ، فهو لا يدنو منه .

ولا يعنى ذلك أن البديل مر الطعام وحامض الشراب ، فكم في الحلال من طيب شهي لذيذ ، وعلى العاقل المكلف الذي يفهم دينه أن يسعى إليه وأن ينشده .

والراغب في الزواج من امرأة حسناء ليس مجرما ، ولا راغبا في وجه الشيطان ، فله ذلك وعليه أن يبحث عنها ، فهي بلا شك موجودة ،

ولكن الذين لا يفقهون يتصورون أن كل حسناء صديقة شيطان ، وأن ذات الدين إنما هي الدميمة التي لا جمال فيها ولا حسن ، وهذا شائع ، بل إنه من تزيين الشيطان فكر الإنسان ، الذي يصور له أن الحرام ألذ من الحلال ، وأن البديل عن الحرام الجميل هو الحلال الدميم .

والحق والموضوعية بخلاف ذلك تماما ، فالله تعالى يقول : ﴿ كُلُوا۟ مِمَّا فِى ٱلْأَرْضِ حَلَٰلًا طَيِّبًا ﴾ ، ويقول تعالى نخاطبا رسوله الكريم ﷺ : ﴿ لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعْدُ وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَٰجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ ﴾ قال : ﴿ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ ﴾

وأنت إذا تأملت وجه الله ﷻ في كل عمل وجدته خير داعية إلى الله ﷻ أي بلسان الحال لا بلسان المقال الذي قد يعجز عن التعبير .

وقد تكون هناك مفارقة بين هذا اللسان ، لسان المقال وهيئة الحال ؛ فيحار الناس كثيرا ، وتلك قضية تتكرر في كل زمان .

ألست ترى غير المسلمين يحكمون على الإسلام بتصرف معتنقيه ، وهذا خطأ عندنا ، ولكنهم لا يعرفون .

وأعني بأن العمل لوجه الله تعالى خير داعية إلى دين الله ﷻ لأنه عمل بإتقان وباستمرار وبجمال وفي جميع الأحوال .

هو عمل متنه الإحسان ، ومطيته السمو ، والرفعة والارتقاء .

والناس إذا رأوا آية حسن في الوجود سألوا عن مبدعها ، والقائم بها ، فإذا قيل : هو مسلم كان ذلك من باب الدعم لحقيقة الدعوة ، وكان لسان دعوة خالصة .

ألا ترى إلى قول الله ﷻ : ﴿ وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ﴾

ثم انظر إلى قوله تعالى المعبر عن لسانهم : ﴿ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ﴾

إعلان في وجه الدنيا أن الذين يطعمون الطعام على حبه من يستحق من مسكين ويتيم وأسير إنما يطعمونهم لوجه الله ، لأنهم يخافون عذابه ويرجون رحمته .

وقس على ذلك من يرفع شوكة من طريق ، إنه يرفعها لأنها تؤذي الناس ، والله ﷻ يدعو عباده إلى رفع الأذى ، وإلى الرحمة حتى بالحيوان ، شكر الناس أو لم يشكروا ؛ فما عند الله ﷻ خير وأبقى .

هذه دعوة صريحة إلى الله ﷻ من خلال سلوك يدعو إلى التأمل ، كما تدعو الآية الناطقة بإبداع وحسن إلى النظر والتأمل .

والناس معظمهم قل فيهم من يقول : إن هذا العمل لوجه الله تعالى

بدليل أنهم إذا أرادوا عملا ذهبوا فيه كل مذهب لتخريجه على وجه يظنونه ، وقلَّ من تجده يخرجه على وجه الله .

مثال ذلك أن رجلا لو أعان رجلا محتاجا قال الناس :

- إنه يعينه ؛ لأنه يصنع دعاية لنفسه ، فهو مقبل على انتخابات نيابية ، أو هو تابع للمرشح فلان .

- ويقول بعضهم : إنه يعينه ؛ لأنه يطمع في الزواج من ابنته .
- ويقول آخرون من سيء الظن : إنه يطمع في امرأته .

وقل من تراه يقول : إنه يعينه لأنه مسلم يؤمن بأن الله تعالى في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه ، وذلك لأنه غير شائع فيهم وجه الله ، وإن كان شائعا لفظه ، فما أكثر الذين يقولون : لله ، لله .

ويهمني أن أسوق مثالا على ذلك يتكرر في حياة الناس ، وهو أن الرجل قد يعمل العمل لوجه إنسان ، أي يريد أن ينال منه خيرا ، ويكون الأمر على غير ما يشتهي ، أي لا ينال منه خيرا ، فيقول آخر الأمر : "يا الله .... كله لوجه الله" .

والله يعلم إنه لم يكن ذلك منه ابتداء لوجه الله ﷻ إنما كان لوجه ذلك الإنسان ، لكنه لا يصرح بذلك قائلا : كنت أعمل ذلك لوجه كذا لكنى أخفقت أو فشلت ، وإنما يقول : ما كنت أريد منه شيئا ، إنما كنت أريد وجه الله ﷻ .

ولو كان صادقا ما رأيت تلك الملامح السيئة على وجهه ، بل ما رأيت مثل ذلك السوء الذي يكون عند فصل موظف كبير من وظيفته ، بعضهم يموت كمداً ، وبعضهم يصاب بالأمراض العنيفة بمجرد أن يقوم من على الكرسى الكبير ، وتراه يقول لك : كنت أخدم لوجه الله .

ولو كان صادقا لما بدا عليه ذلك ، ولما سقط من طوله على الأرض جثة جامدة من هول ما حدث له إذ كان بلا شك يعمل لوجه الكرسى الكبير الذي لم يطق فراقه ، ولو كان يعمل لوجه الله تعالى لم يعنه أن يكون على ذلك الكرسى ، أو على غيره .

والدليل على ذلك أن خالد بن الوليد حين عزله عمر بن الخطاب عن قيادة الجيش ، وولى مكانه أبا عبيدة بن الجراح ، فما كان من خالد إلا أن سلم مقاليد القيادة إلى أبى عبيدة ، وقال : "إن الذي يقاتل في سبيل الله لا يعنيه أن يكون قائدا أو جنديا" .

ما مرض خالد وما أصابه شيء مما يصيب الناس حين يركبون الكراسى الكبيرة وهم مرضى فيصحون ، فإذا تركوها وهم أصحاء مرضوا ، أو ماتوا ، لم يتحملوا الحياة في البعد عن تلك الكراسى ، ثم يقولون لك إنما كان هدفنا وجه الله تعالى ، وكنا نخدم ابتغاء وجهه الكريم ، وكأنهم مرضوا أو ماتوا حزنا على مفارقتهم ميدانا من ميادين الجهاد في سبيل الله .

وانظر إلى هذا الذي يدفع المبالغ الطائلة حين يرشح نفسه لكرسى البرلمان ، أتظن أنه يدفع هذه الملايين من أجل الحصول على فرصة يكافح فيها الفساد ، ويرفع من أجلها راية الدين ويعلى من شأن البلاد ، أم أن ذلك من أجل مصلحة شخصية ، والحصول على حصانة وغيرها .

قولان ، واحتمالان ، ولكن إذا صدرنا احتمال وجه الله تعالى فأين صداه من رفعة وتوفيق !

ألا ترى إلى قول الله ﷻ : ﴿ فَٱبۡعَثُواْ حَكَمٗا مِّنۡ أَهۡلِهِۦ وَحَكَمٗا مِّنۡ أَهۡلِهَآ إِن يُرِيدَآ إِصۡلَٰحٗا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيۡنَهُمَآۗ ﴾ .

أي أن من عمل لوجه الله تعالى وفقه الله ﷻ بدون شك ؛ لأنه ينصر بعمله هذا دين الله ، وقد وعد الله ﷻ من ينصر دينه بنصره ، قال ﷻ : ﴿ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ ﴾

ونصر الله على حذف مضاف ، أي إن تنصروا دين الله ، وتكون نصرة دين الله من غير شك بأن يكون العمل لوجه الله تعالى .

وقد قال الله ﷻ : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ﴾

وقال سبحانه : ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾

وقال عز من قائل : ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ۝٢ وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُۚ وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسۡبُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمۡرِهِۦۚ قَدۡ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَيۡءٖ قَدۡرٗا ﴾

وغير ذلك من الآيات ، فهل ترى من أثر لهؤلاء الذين يقولون : نريد أن نقدم شيئا لوجه الله ، والحال يزداد سوءا دورة بعد دورة ، فإن قلت : لأن الفساد كثير ، فالجواب أن الله ﷻ يقول : ﴿ بَلۡ نَقۡذِفُ بِٱلۡحَقِّ عَلَى ٱلۡبَٰطِلِ فَيَدۡمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٞۚ ﴾

ومهما كثر الفساد فإن الحق غالب ، وقد قال الله ﷻ : ﴿ كَم مِّن فِئَةٖ قَلِيلَةٍ غَلَبَتۡ فِئَةَۢ كَثِيرَةَۢ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾

وقال تبارك اسمه : ﴿ قَدۡ كَانَ لَكُمۡ ءَايَةٞ فِي فِئَتَيۡنِ ٱلۡتَقَتَاۖ فِئَةٞ تُقَٰتِلُ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخۡرَىٰ كَافِرَةٞ يَرَوۡنَهُم مِّثۡلَيۡهِمۡ رَأۡيَ ٱلۡعَيۡنِۚ وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصۡرِهِۦ مَن يَشَآءُۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبۡرَةٗ لِّأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ ﴾ .

لوجه الله لا تعمل

ومن ثمرة العمل لوجه الله تعالى ألا تعمل .

نعم ، لا تعمل عملا لست قادرا عليه ، أو لا تتقنه ، أناشدك الله ﷻ ألا تعمل عملا تخسر فيه مالك ، والمال عزيز ، أو وقتك ، والوقت عمرك ، والعمر أعظم ما تملك ، وأنت لا تتقنه ، ولا تكن كالذين يقولون : توكلنا على الله ، ويدخلون في أعمال لا يعرفون شيئا عنها ؛ فذلك ليس من التوكل على الله ﷻ في كل شيء .

إنما هو توكل على الشيطان الذي زين لهم أنهم قادرون على الأعمال كلها ، ألا ترى إلى قول قائلهم : أنا بفضل الله لا شيء يقف أمامي .

إن قلت له : أجازر أنت ؟ يعنى جزار ، قال لك : نعم .

وإن قلت له : أكهربائى أنت ؟ قال : نعم .

وإن قلت : أطبيب أنت ؟ قال لك : نعم ، وأنا مؤمن بأن الطبيب هو الله ، حتى تقول له : وأنعم بالله ، هيا ، تلك مريضتنا ، فانظر ماذا بها ، فينظر ، ثم يصف ، ثم يقتل البريئة التي دفع بها أهلوها إليه على نية التوكل على الله .

وليس من التوكل على الله أن تدخل في عمل لا تجيده ، ولا تتقنه ؛ لأن التوكل على الله معناه الإنجاز ، ولن ينجز إنسان ما عملا من الأعمال وهو لا يحسنه ولا يجيده .

إنما ينجز المبدع ، والمبدع إذا عمل لوجه الله أتقن ؛ لأن العمل لوجه الله سبحانه يزهي ما يعمله العاملون ؛ فله جمال وبهاء ككلام الله تعالى ، ألا ترى إلى قول الوليد فيه : "إن له لحلاوة ، وإن عليه لطلاوة ، وإن أعلاه لمثمر ، وإن أسفله لمغدق ، وإنه ليعلو ولا يعلى عليه"

وكما أن كلام الله ﷻ له حلاوة ، وعليه حلاوة ، وأعلاه مثمر ، وأسفله مغدق ، وهو يعلو ولا يعلى عليه ، كذلك العمل الذي يكون خالصا لوجه الله

وقد قرأت فيما ذكره الذهبى من تراجم العلماء أن شابا قال لوالده ، وكان من العلماء : مالى أراك إذا تكلمت أو حدثت أبكيت الناس ، وإذا تكلم غيرك أو تحدث لا يبكون ؛ فقال له : "يا بنى ذلك لأن بكاء الثكلى ليس كبكاء المستأجرة" .

أي أن الرجل يشبه نفسه بالثكلى التي فقدت عزيزا عليها من زوج ، أو ولد ، أو والد ، لا شك أنها إذا بكت كان بكاؤها مختلفا عن بكاء التي تستأجر من أجل أن تبكى ، لتبكى النساء ، لأن الثكلى بكاؤها صادق ، فكل دمعة تذرفها عيناها برهان صدق ، وإن لم تكن

وابلا ، ودمع غيرها المستأجرة وإن كان وابلا غزيرا متتابعا يغرق الوجنتين ، ويفيض على الصدر والجانبين فلا يؤثر هذا التأثير الذي يكون من رقرقة عين حزينة بالفعل ، يدرك ذلك الوجدان الحى ، الذي له لغة لا يدركها اللسان ولا تعرفها الآذنان .

وقد ورد أن من السبعة الذين يظلهم الله تعالى بظله يوم لا ظل إلا ظله رجلا ذكر الله خاليا ، ففاضت عيناه .

إنها دمعة في الخلاء ، هل تظن أن وراءها شيئا من رياء ، لا شك أنها دمعة جسدت كل الإحساس بالخطايا التي ارتكبها ذلك الباكى ، وكان عليه أن يشكر الله على نعمه ، وأن يكون في طاعته لا في معصيته ، فهو يعبر بها عن خوفه وندمه ، ويرجو بها رحمة ربه ، فانظر كيف تكون هذه الدمعة معبرة عن هذا الكيان الجريح ، الذي انتقل من دماء تحترق ، وقلب تعصف به الأنواء الداخلية ، وهي أعتى من

كل الأنواء الخارجية التي تعصف بالأشجار والوديان ، وتجرى لها البحار والمحيطات ، فسرعان ما تهدأ تلك العواصف الخارجية ، ويلملم الربيع ما شتته الخريف ، لكن عواصف النفس الأمارة بالسوء لا تهدأ ، ولا يلملم شتات ما فرقت هدوء ؛ إلا هدوء الإحساس بأن الله قد تاب وعفا .

بخلاف ما تراه من الدمع الجماعي ، الذي يختلط فيه الصدق والكذب ، يشق عليك أن تعرف صادقه من كاذبه ، هذا البكاء الجماعي أشبه ما يكون بالضوضاء ، وهناك فرق بين الضوضاء والصفاء .

ذلك الصفاء الذي يتجلى عند الوحدة لا عند الاجتماع ، وأي صفاء تراه في غير عمل عمله صاحبه لوجه الله .

إنه صفاء الفكرة قبل أن تصفو الأجواء ، صفاء النفس التي تستقبل وحى الله الذي هداها لكى تعمل عملا خالصا لوجه الكريم .

لا شك أن العمل الذي يكون لوجه الله ﷻ يختلف كل الاختلاف عن العمل الذي يكون لغير وجهه ، وقد أمرنا جميعا بالعمل لوجهه الكريم ، فقد قال الله تعالى : ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ﴾

ولن يكون الوجه مقاما للدين ، ليقيم الدين ، إلا إذا كنا متقنين .

وإذا كنت تريد وجه الله تعالى وأنت مقبل على الزواج فأرجوك ألا تتزوج إلا إذا كنت قادرا على إقامة بيت ، وإسعاد زوجة ، وأنتِ كذلك ، إذا كنت تريدين أن تتزوجى لأن سنة هذا الدين الزواج ، فأرجوك ألا تتزوجى إلا إذا كنت قادرة على معنى الزوجية ، والأمومة ، والزوجية والأمومة من المعانى السامية قبل أن تكون التحام أبدان بأبدان ، وقبل أن تكون إخراج ثدى من ستر ثوب لإرضاع صغير ، إنما تلتحم الأبدان لتحقق للنفوس غاية ، ويخرج

الثدى من الصدر ليلتهمه وليد ، فيرضع منه الحنان ، قبل أن يملأ بطنه بالألبان .

وما غاية النفوس من التقاء الأبدان إلا الاستقرار والسكن ، ﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ .

وقد نسب إلى الإمام أبى حنيفة رضي الله عنه أنه قال : من لم يستطع العدل مع امرأة واحدة فلا يتزوج أصلاً .

فليس العدل فقط بين الزوجات المتعددات وإنما هو مع الزوجة الواحدة ، التي هي كيان وروح قبل أن تكون امرأة تحقق المتعة ، وتعين على قضايا الحياة .

وما أكثر الذين يتزوجون وهم غير صالحين للزواج ؛ لأنهم متوحشون ، والزواج من سنن الله في الناس ، لا في الوحوش ، ومتى رأيت لفظ الناس فاعلم أن المراد به الأنس ، وهو ضد التوحش .

رجالا كان هؤلاء أو نساء ، ينبغى أن يكون الزواج لوجه الله بمعنى توفر النية والمال من أجل تحقيق سعادة حقيقية لا وهمية ، لا من أجل ما تسمعه من أقوال الناصحين به ، الحاثين عليه ، الذين يقولون للشاب : لقد كبرت ، ورفاقك تزوجوا منذ زمان ، وصار لهم أطفال كبار ، فإلى متى ؟

وبمثل هذا يقولون للفتاة ، لقد كبرت ، سوف تعنسين ، سيفوتك القطار

فليس هذا مسوغا لزواج من ليس يرغب في الزواج ، أو من ليس يصلح للزواج .

وكما قيل لابن عساكر : إن لم تتحدث فمن ذا الذي يتحدث ، وذلك بعد أن درس الحديث عشرين عاماً ، أي مثلك لابد أن يحدث ؛ لأنه قد صار أهلا لكي يحدث الناس ؛ فهو مؤهل لذلك .

وكذلك يقال للطبيب الماهر الذي جمع بين الدراسة والخبرة ، وكذلك يقال للمهندس الكبير ، والخبير بكل علم من العلوم .

أما أن يتحدث الأحداث والهواة ، الذين تغريهم شهوة الحديث والشهرة ، ويتزوج من ليس أهلا للزواج فيدمر نفسه وصاحبه فليس ذلك من الصواب في شيء ، ولا من وجه الله تعالى .

وللهواة من الدعاة والمفتين غير المؤهلين أقول :

إذا كنتم تريدون وجه الله تعالى فلا تتكلموا في دين الله ﷻ حتى تصيروا لذلك أهلا ، ولن يصيروا له أهلا إلا إذا نذروا أعمارهم في طلب العلم قبل أن يتصدروا لبيانه ، ومن قديم قال الناس : "من تصدر قبل أوانه نال ذل هوانه" .

وقد قيل إن أبا يوسف تلميذ أبى حنيفة قد تصدر قبل أوانه ، فلما دخل أبو حنيفة ، ووجده قد تصدر حلقة تركه ، ومضى إلى حلقته ، وأرسل إليه طالبا من طلابه يسأله : ما تقول في قصار ، طمع في ثوب جاءه ليقصره ، ثم تاب ، وأرجع الثوب لصاحبه ، فهل يستحق أجرة تقصيره ، فإن قال لك : نعم فقل له أخطأت ، وإن قال لك : لا ، فقل له : أخطأت .

فذهب إليه ، فقال له أبو يوسف : نعم يستحق أجرة تقصيره ، فقال له كما أوصاه أبو حنيفة : أخطأت ، فقال : لا ، لا يستحق ، فقال له الرجل : أخطأت

فترك مجلسه ، وجاء فجلس في حلقة شيخه أبى حنيفة ، فقال له الإمام مداعبا :

ما أظن أن جاء بك إلا مسألة القصار !

فقال : نعم

فقال الإمام : إذا كان قد قصر الثوب للرجل قبل أن يطمع فيه لنفسه فله أجرة ، وإن طمع فيه ثم قصره لنفسه فلا أجرة له .

وما أكثر المسائل التي فيها مثل هذا التفصيل ، والتي لا يلم بها إلا العلماء ، الذين نذروا أعمارهم من أجل طلب العلم ، وبذلوا النفس والنفيس فيه حتى اكتملوا ، ثم تصدروا المجالس ، وعلموا الناس ، ومع ذلك كانوا يقولون في بعض المسائل : لا أدري .

وقد جاء رجل الإمام مالكا عليه رحمة الله بمسائل كثيرة ، فقال في معظمها : لا أدرى .

فقال له : لقد جئتك من بلادى ، وقد قال لى الناس : إنك ذاهب إلى أعلم أهل الأرض .

فقال له الإمام : إذا عدت فقل لهم : جئتكم من عند رجل يقول : "لا أدرى"

وقد دعت شهوة الكلام والشهرة بعض الهواة من الدعاة إلى التطاول على كبار الأئمة من المحدثين والفقهاء ، وقالوا : كانوا رجالا ونحن رجال .

وهذا صحيح بالنسبة إلى الصورة والشكل والهيئة ، أما بالنسبة إلى المحتوى فالأمر يختلف تمام الاختلاف .

فكم من رجل من حيث الصورة والشكل وهو من الداخل لا شيء .

وكم من شكل أسد جسور وهو من الداخل هرة .

وكم من جسد يذكرك بالبغل ، وفي رأسه عقل عصفور كما قيل "جسم البغال وأحلام العصافير" .

وكم من جسد عصفور وعقله عقل العظماء .

ألا ترى إلى قول عمر رضي الله عنه في ابن مسعود رضي الله عنه : "كُنَيف ملئ علما" .

والكنيف : المحبرة التي يعرفها الناس ، وهي أداة صغيرة ، يشبهه بها لضآلة حجمه ، لكن مع هذه الضآلة ملئ علما .

وقد قال في ساقيه النحيفتين رسول الله ﷺ إنهما سوف تأتيان يوم القيامة في وزن جبل أحد .

نعم كانوا رجالاً ، ولكن كانوا عقولا قادرة على الاستنباط ، ﴿ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ ﴾ .

ونحن رجال ، لكنا كما قيل في الفقهاء عيال على أبى حنيفة ، ونحن كذلك عيال على تلاميذ تلاميذ أبى حنيفة ، ألا نفرق بين رجل و "عيل" .

حتى وإن رأينا ذلك العيل على هيئة الرجال طولا وعرضا ، ولحية وشاربا ، لكنه ما زال عيلا ؛ لأنه غير مستقل بنفسه ولا بحياته ، فهو لم يزل يتناول مصروفه من أبيه أو من أمه ، فإن رأيته وأنت لا تعرفه قلت : رجل ، وأنعم به ، فإن عرفته ووقفت على حقيقته ، وأنه عيل على أبيه أو أمه قلت "عيل" بلا شك .

وكذلك الحال في الذين يزعمون أنهم دعاة إلى الله ، وأنهم يريدون وجه الله بهذا الجهاد في سبيله ويظنون أنهم خير الناس ؛ لأن رسول الله ﷺ يقول : "خيركم من تعلم القرآن وعلمه" .

وهم في الحقيقة لا يحسنون تلاوة القرآن الكريم فضلا عن تجويده ، والوقوف على أسرار الوقف والابتداء فيه ، وعن تفسيره ، ومذاهب رجاله ، وإعراب ظاهره فضلا عن مشكله ، إلى غير ذلك .

فكيف يقبل منهم قولهم ، وكيف يتصدون لتفسير الكتاب العزيز الذي يحتاج إلى الإحاطة بخمسة عشر علما ذكرها جلال الدين السيوطي رحمه الله في كتابه الإتقان ، منها أسباب النزول ، والحديث ، والبيان ، والبلاغة ، والنحو ، والصرف ، والفقه ، ومعرفة المجمل والمفصل ....

لا شك أن من أراد وجه الله قال علىَّ ألا أتكلم حتى أنضج .

وقد رأيت أن مشاهير الدعاة تخصصوا في الهندسة والزراعة والطب ، أليس من وجه الله أن يعملوا فيما تخصصوا فيه ، وفيما فيه قضوا أعمارهم ، وأن يفسحوا المجال للعلماء المتخصصين في الدين .

ولكل من يعمل عملا ليس من أهله أقول : اتق الله ، وأعط القوس باريها ، وخل الطريق لمن يبنى المنار به ، حتى ترضي ربك ، وتعين على رفع راية أمتك ، وإعلاء صروح مجدها ، وتحقيق وعد الله لها .

ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا ، وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب ، واجعل أعمالنا خالصة كلها لوجهك الكريم ، فكل شيء هالك إلا وجهك الذي أشرقت له الظلمات وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة ، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

بقلم
أ.د / مبروك عطية
الأستاذ في جامعة الأزهر الشريف

الفهرس

الموضوع	الصفحة
• المقدمة	٣
• الفصل الأول الطريق إلى وجه الله تعالى	١١
• الفصل الثاني أثر العمل لوجه الله تعالى	١٠٣